العلم

العِلم أشرف مطلوب، وأجل مقصود، وبه يُعرف الله ﷻ، والعلم انشراح للصدر وراحة للفكر وعلو للذكر واستقامة للأمر، بالعلم يجلس الصعلوك على أسرّة الملوك، وبالعلم يستشهد العلماء على وحدانيته ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]. ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [المجادلة: ١١].

أول كلمة نزلت من السماء من الله ﷻ على رسوله ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] لشرف العلم وشرف المعرفة وشرف الفائدة، ولم يُطلب من الرسول ﷺ أن يطلب التزود إلا من العلم ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤].

يقول أبو إسحاق الألبيري في قصيدته الرائعة التي أولها:

تَفُتُّ فُؤَادَكَ الأَيَّامُ فَتًّا ... وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا

يقول فيها - يمدح العلم ويشجع ابنه على طلب العلم وأنه مثل السيف -:

هُوَ الْعَضْبُ الْمُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو ... تُصِيبُ بِهِ مَضَارِبَ مَنْ أَرَدْتَا

وَكَنْزٌ لا تَخَافُ عَلَيْهِ لِصًّا ... خَفِيفُ الْحِمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

لأن العلم معك في السوق وفي البيت والمكتب والطريق والسيارة والطائرة، كما يقول الشافعي:

عِلْمِي مَعِي حَيْثُمَا يَمَّمْتُ يَتْبَعُنِي ... صَدْرِي وِعَاءٌ لَهُ لا بَطْنَ صُنْدُوقِ

إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِي ... أَوْ كُنْتُ بِالسُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ بِالسُّوقِ

فيقول: العلم كنز لا تخالف عليه لصاً، فاللص يسرق المال وإذا سُرق المال انتهى. فانظر البورصة الآن، التاجر يمسي في ليلة صاحب ملايين ويصبح فإذا هو فقير، لكن العالم من لا يسرق علمه، فعلمه في صدره وفي فكره.

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَاقِ مِنْهُ ... وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدْتَا

كلما علمت وكلما خطبت ودرست زادك الله من الفتوحات وفتح لك الكنوز، وكلما أمسكت نقص، فالعالم إذا بخل بالعلم أغلق الله عليه منافذ المعرفة.

فَبَادِرْهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ ... فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

أي: بادر العلم. وخذ وتزود.

وَإِنْ أُوتِيتَ فِيهِ طَوِيلَ بَاعٍ ... وَقَالَ النَّاسُ: إِنَّكَ قَدْ رَؤُسْتَا

أي: صرت عالماً وعندك متون وحفظ، أصبحت وجيهاً في الناس مصدَّراً.

فَلا تَأْمَنْ سُؤَالَ اللهِ عَنْهُمْ ... بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتَا؟

إِذَا لَمْ يَفِدْكَ التَّعْلِيمُ خَيْراً ... فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا عَلِمْتَا

إن لم يكن العلم قد دلَّك على تقوى الله ودمعة في السحر وسجدة، والصف الأولى ولم يجعلك حمامة مسجد وعندك مصحف تتلوه، وصاحب أخلاق مع الناس متواضعاً وتكتم الغيظ فتكون من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، وتسامح من أخطأ في حقك، باراً بوالديك وصولاً لأرحامك محباً للخير، فلا حيَّا الله هذه المعرفة، إذا لم يزدك العلم خيراً.

وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَغَارٍ ... فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا

هذه قصيدته في مدح العلم وأهل العلم، وفي وصيته لابنه في تقوى الله عز وجل.

ومن أجلّ ما أوصى به العلماء قصيدة علي بن عبد العزيز الجرجاني، التي هي من أمتع وأجمل وأرق الشعر، بل هي في درجات شعر المتنبي وأبي تمام، وكان هو قاضي أصبهان وكان وجيهاً وشاعراً وأديباً، وله أبيات من ضمنها:

يَقُولُونَ لِي: فِيكَ انْقِبَاضٌ. وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا

كان ينقبض من مجالس العامة والناس والقيل والقال.

أَأَشْقَى بِهِ غَرْساً وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إِذاً فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا

وَلَمْ أَبْتَدِرْ فِي مُهْجَةِ الْعِلْمِ مَطْلَبِي ... لَأَخْدِمَ مَنْ لاقَيْتُ لَكِنْ لُأَخْدَمَا

أي: إذا لم يدلني على تقوى الله والمحافظة على الصلوات وبر الوالدين وحسن الخلق فليتنا ما ضيعنا الشباب في امتحانات وفي الحفظ وفي المذاكرة وفي التعب وفي السهر، ثم ما النتيجة؟! النتيجة يأخذ الإنسان بالعلم المال ويأكل به.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا

وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

وهي اثنان وعشرون بيتاً من أجمل ما قيل في هذا الباب.

وكذلك قصيدة ابن الوردي الذي يقول:

اعْتَزِلْ ذِكْرَ الْأَغَانِي وَالْغَزَلْ ... وَقُلِ الْفَصْلَ وَجَانِبْ مَنْ هَزَلْ

ثم يقول:

فِي ازْدِيَادِ الْعِلْمِ إِرْغَامُ الْعِدَى ... وَجَمَالُ الْعِلْمِ إِصْلاحُ الْعَمَلْ

لا تَقُلْ: قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ ... كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

أي: لا تقل: العلم ذهب أصحابه ومات أصحابه. فمن أوصل سفيان الثوري سوف يوصلك، والذي هدى الشافعي ووفقه يوفقك، والذي فتح على أحمد بن حنبل يفتح عليك، الله حي لا يموت وخزائنه ملأى، ونواله موجود، لكن اطلب واسأل واصدق له في العبودية ﷻ.

والعلم يميز البهيمة التي تتدرب وتتعلم عن الأخرى غيرها، حتى إنك تجد الكلب المعلم صيده حلال وأما الكلب غير المعلم فصيده حرام ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ

أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]. يقول حافظ الحكمي:

وَمَيَّزَ اللهُ حَتَّى فِي الْبَهَائِمِ مَا ... مِنْهَا يُعَلَّمُ عَنْ بَاءٍ وَمُغْتَشِمِ

فالجاهل من الكلاب لا يحل صيده ولا يؤكل ما صاده، وأما المدرَّب الذي علمناه فإذا صاد نأكل صيده! فانظر كيف ميز الله ﷻ بين البهائم.

فالعلماء سادة ومجالسهم إفادة ومصاحبتهم زيادة والوفود إليهم أعظم وفادة، فهم للخير قادة وللدين ذادة، يذودون عنه من ناوأه إذا صدقوا في التعلم والعمل وحمل الميثاق وهو مراقبة الباري ﷻ، والطريق العظيم للتعلم على المشايخ والعلماء، لكن القراءة القراءة.

يقول عبد الرحمن بدوي: المعرفة ثلاثة أسس: القراءة، ثم القراءة، ثم القراءة. لأن المسألة ثلاثة وثلاثة في ثلاثة تسعة، فبدوي يقول: العلم والمعرفة القراءة، ثم القراءة، ثم القراءة. وإسحاق نيوتن يقول: النجاح: العمل، ثم العمل، ثم العمل. ويقول نابليون: كسب المعركة يحصل بالمال، ثم المال، ثم المال. فهذه تسعة، وهي من الفوائد التي جرت بين الناس، فالقراءة هي الطريق الواسع للمعرفة بأن تكون طالب علم، ولذلك انظر كلمة: اقرأ.

اقْرَأْ كِتَابَكَ هَذَا الْعِلْمَ تَسْمَعُهُ ... مَا بَيْنَ طَلْعَتِهِ مِنْ سَابِقِ الْأُمَمِ

مَنْ نَحْنُ قَبْلَكَ إِلاَّ نُطْفَةٌ غَرِقَتْ ... فِي الْيَمِّ أَوْ دَمْعَةٌ خَرْسَاءُ فِي الْقِدَمِ

أَكَادُ أَقْتَلِعُ الآهَاتِ مِنْ فَرَطِي ... إِذَا ذَكَرْتُكَ أَوْ أَرْتَاعُ مِنْ نَدَمِي

فالعلم منه القراءة والاستماع والتفقه وطلب العلم على المشايخ، وكلها تؤدي إلى ذلك.

يقول أحد عشاق الكتاب: إن القراءة والذهانة والفهامة والدراسة أصل التعبد والتسهل والتزهد والرياسة والسياسة. الدنيا والدين أساسها القراءة، حتى إنك لا تجد أحداً بارزاً في مكان ما إلا لأنه تعلم شيئاً من المعرفة وعرف، يعرف كيف يتكلم ويحاور ويأخذ ويعطي ويدير الجلسة، يؤثر في الناس بأفكاره يبدع بألفاظه، ينظم أبياتاً راقية يكتب مقالاً خلاّقاً، أما الجاهل الذي لا يقرأ يومه ولا نهاره فهو كتلة من اللحم؛ يومه مثل أمسه وأمسه مثل يومه، ويأتي غده مثل اليوم، فالمطلوب أن نتعلق بالعلم ونزداد منه معرفة، حتى يقول ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ**».

وأوصى ﷺ بطلب العلم وحثّ عليه وبيّن أن أهل العلم هم أفضل الناس، وفضل العلماء كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن معلم الناس الخير الذي يتعلم ويعلم الناس تستغفر له حتى النملة في بيتها وحتى السمك في الماء وحتى الطير في الهواء.

يقول ابن عباس «لما تعلم العلم: «**ذَلَلْتُ طَالِباً فَعَزَزْتُ مَطْلُوباً**». أي: إنني لما كنت طالباً كنت أذل. حتى إنه كان يذهب إلى الشيخ وينتظر عند الباب حتى يقوم الشيخ، ويقول: «**وَاللهِ إِنِّي كُنْتُ آتِي بُيُوتَ الأَنْصَارِ لأَطْلُبَ الْحَدِيثَ عَنْهُمْ فِي الْقَيْلُولَةِ، فَأَجِدُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ نَائِماً فَلا تُوقِظُهُ الْجَارِيَةُ فَأَبْقَى عِنْدَ الْبَابِ، وَاللهِ إِنَّ الرِّيحَ بِسُمُومِهَا تَلْفَحُ وَجْهِي بِالْغُبَارِ وَإِنِّي أَنْتَظِرُ حَتَّى يَقُومَ فَأَطْلُبُ الْعِلْمَ مِنْهُ**». فصار ابن عباس «عالم الدنيا، فصار المرجع؛ لأنه لما تعلم وصار بحراً صار يفد إليه الناس يضربون إليه أكباد الإبل من العراق واليمن ومصر والشام، ومن كل أطراف الجزيرة، ويقول: كان له مجلس حديث في الحرم، فإذا صلى الفجر ذكر الله ﷻ حتى ترتفع الشمس، ثم قال: «**عَلَيَّ بِأَهْلِ الْقُرْآنِ وَالتَّفْسِيرِ**». فيفتيهم ويعلمهم ويدرسهم، ثم يُقَدَّم الطعام من قبله، وهو يُدَرِّس في الحرم، فهو قد جمع بين الإنفاق من العلم والإنفاق من الطعام ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن

رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. ثم قال: «عَلَيَّ بِأَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ». ثم بأهل الفتيا ثم أهل السنة والحديث، ثم إذا اقترب الظهر قام، وهذا لا يكون إلا من مثل ابن عباس «لأنه طلب وحرص، وتلك هي الليلة المباركة في حياة ابن عباس».

يَا لَيْلَةَ الْجَزْلِ هَلَّا عُدْتِ ثَانِيَةً ... سَقَى زَمَانَكِ هَطَّالٌ مِنَ الدِّيَمِ

لأنه في ليلة رسول الله عند ميمونة خالة ابن عباس نام عند رسول الله ﷺ فلما خرج رسول الله ﷺ قام ابن عباس «إلى القربة فقرَّب ماء له؛ ليتوضأ ﷺ قال: «**مَنْ قَرَّبَ لِي هَذَا اللَّهُمَّ، فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**». فانطلق هذا الفتح وهذا الفهم من تلك الليلة، عمره ثماني سنوات ويعلم أن رسول ﷺ إذا خرج يحتاج الماء فقرَّب له الماء، فرسول ﷺ لم يدعُ له بمال ولا بذريَّة ولا بدور ولا بقصور ولا بخزائن، بل قال: «**اللَّهُمَّ، فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**». فالفقه في الدين علم السنن والفهم والتأويل تفسير كتاب الله ﷻ.

ولما قام في الحرم رجل حَادٌّ وَغَضُوبٌ يتكلم على ابن عباس، وكان ابن عباس حليماً عالماً بحراً ذكياً مُرِسّاً داهية، آتاه الله صباحة ورجاحة وملاحة، وهو جالس بين الناس كأنه القمر ليلة أربعة عشر، فرجل مستعجل يريد أن يسأل ابن عباس، فبدأ ينتظره قليلاً فغضب ذلك الرجل فسب ابن عباس، فقال ابن عباس: «**أَتَسُبُّنِي وَفِيَّ ثَلَاثُ خِصَالٍ؟!**». قال الناس: ما هي؟. قال: «**وَاللهِ مَا سَمِعْتُ بِقَطْرٍ بِأَرْضٍ إِلاَّ حَمِدْتُ اللهَ وَلَيْسَ لِي فِيهَا نَاقَةٌ وَلا جَمَلٌ، وَلا سَمِعْتُ قَاضِيَاً يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ إِلاَّ دَعَوْتُ لَهُ وَلَيْسَ لِي عِنْدَهُ قَضِيَّةٌ، وَلا فَهِمْتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلاَّ وَدِدْتُ لَو يَفْهَمُ النَّاسُ مِنْهَا مَا أَفْهَمُ**». وذلك لعلمه ولحلمه ﷺ ورجاحته لنصحه فأعطاه الله ﷻ، فينبغي على من يتعلم آية أو حكمة أو حديثًا أو قصة أن يفَعِّلَها

في حياته، وإلا فما فائدة أن يسهر الإنسان مع المجلدات دون العمل بها؟! ويقول الله ﷻ عن أعدائه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]. وقال عن العالِم الذي ضل وانحرف عن الدين في عهد موسى عليه السلام ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. فهذا مثل الذي لا يستفيد من الحكمة وتضيع عليه المعرفة ولا يظهر عليه البركة بركة العلم في الصلاح وفي التقوى وفي العمل وفي إسداء الخير للناس، وإنما جئت بهذا الذكر العلم.

والمتنبي في قصيدة يقول في كافور، وهي من أجمل قصائده التي قالها:

وَلِلسِّرِّ منه مَوْضِعٌ لا يَنَالُهُ ... نَدِيمٌ وَلا يُفْضِي إِلَيْهِ شَرَابُ

إلى أن يقول:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ ... وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ ... سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهُ وَخِطَابُ

يقول: أعز مكان في الدنيا وأشرف مكان أن تكون على ظهر الفرس؛ لأنك إذا كنت هناك كنتَ صاحب عزة ودافعت عن مجدك وعن دينك وعن رسالتك فهابك الناس.

وخير جليس في الزمان كتاب؛ لأن الكتاب لا يؤذيك ولا يُمِلُّك ولا يُسئِمُك ولا يغتابك ولا يذلك ولا ينم عنك ولا يثقل عليك، إن قرَّبْته دنا وإن أبعدته دنا وإن كتمته سراً كتم، وإن أردت أن يضحكك أضحكك وإن أردت أن يبكيك أبكاك، وإن رجعت له بعد سنة ما عتب عليك ولا عاتبك: لِمَ تركتني ولِمَ هَجَرْتَنِي؟ خفيف

المحمل تجعله في جيبك وتحت إبطك وتأخذه معك في السيارة، ويجمع لك العلوم والدهور والقرون والأزمان ما بين آية محكمة وحديث صحيح وقصة وخبر طريف، وبين نادرة وبين نكتة وبين موعظة، وينقل لك شجون العالم وأخبار الدنيا وأفكار المعمورة، فيجمع لك أفكار الغرب والشرق والعرب والعجم والبربر، يجمع لك التاريخ والأدب والفقه والتفسير والجغرافيا، ويُحدِّثك نظماً ونثراً، وإذا مللت وقف وسكت وإذا أطبقته هدأ مكانه، أما الجلساء فأحدهم- إلا الصالحين- يلمز، والآخر يغتاب وإذا قطعت عليه غضب وإذا سكت شاركته في الإثم، وبعضهم ثقيل يزورك الساعة الثانية عشرة ليلاً ويبقى عندك ويأكل طعامك في الله ويحبك في الله ويعانقك في الله ويشرب في الله، ويتصل بك في اليوم عشرين مرة، ويستلف مالك في الله ولا يردها في الله، وهذا كله في بعض الصداقات، فهذا الثقل كله منفي عن الكتاب، ولذلك أجمع العقلاء في العالم على أن أحسن من تجلس معه الكتاب.

وكان ابن المبارك إذا جمع الكتب حوله قال: أنا بين أصحاب رسول الله ﷺ - يقصد الأحاديث - أنتم تغتابون الناس أما هؤلاء فلا يغتابون الناس.

والأصمعي قيل له: لِمَ نراك وحدك؟. قال: أنا لست وحدي، أنا معي أصدقاء بررة وجُلاسٌ خيرة. فينظرون فإذا الكتب بين يديه. وكان بعضهم يقول: إن الإمام أحمد كان إذا نام كانت الكتب عند رأسه عشرة أو عشرين كتاباً، وقال له رجل: أريد خراسان. قال: خذ الكتب، لا تستوحش.

obeikandl.com

العيون في الشعر

مـن آخر مـا قرأت بيتيـن للشاعـر الإيراني العالمي المشهور السعد الشيرازي، يقول فيهما:

بَكَتْ عَيْنِي غَدَاةَ الْبَيْنِ دَمْعاً
وَأُخْرَى بِالْبُكَا بَخِلَتْ عَلَيْنَا

فَعَاقَبْتُ الَّتِي بِالدَّمْعِ ضَنَّتْ
بِأَنْ أَغْمَضْتُهَا يَوْمَ الْتَقَيْنَا

معنـى البيتيـن يقـول: إن عيني لمـا فارقت أحبابـي بكت، أمـا الثانية فما بكـت ولا شاركتنا، فلما التقينـا بعد مدة فتحت هذه؛ لترى الأحباب، أما هذه فأغمضتها؛ عقاباً لها.

وهذه تُسمى لغة العيون، ومن أحسن من تفنن فيها الشعراء عند العرب، حتى إن ابن كثير ذكر ابن الخياط في ذلك، وهو شاعر من أعظم الشعراء له ديوان كبير، قال بعضهم: أحسن ما في ديوانه قوله:

لها عَيْنٌ أَصَابَتْ كُلَّ عَيْنٍ ... وَعَيْنٌ قَدْ أَصَابَتْهَا الْعُيُونُ

فإذا عُلِمَ هذا، فقد قال العرب في العين كثيراً، حتى إن الصُّمَّةَ القشيري قال:

بَكَتْ عَيْنِيَ الْيُمْنَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا ... عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحِلْمِ أَسْبَلَتَا مَعَا

لأنه يقول:

أَلَيْسَتْ عَشِيَّاتِ الْهَوَى بِرَوَاجِعٍ ... عَلَيكَ وَلَكِنْ خَلَ عَيْنَيْكَ تَدْمَعَا

إلى أن يقول:

بِنَفْسِيَ تِلْكَ الأَرْضُ مَا أَحْسَنَ الرُّبَا ... وَمَا أَحْسَنَ الْمُصْطَافَ وَالْمُتَرَبَّعَا

بَكَتْ عَيْنِيَ الْيُمْنَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا ... عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحِلْمِ أَسْبَلَتَا مَعَا

يقول: لما بكت عيني اليمنى وقلت: خافي الله لا تحزني ولا تقلقي ولا تجزعي، وانظري إلى الشمال كيف صبرت واحتسبت، وبعد قليل فإذا الشمال تبكي معها. فلا سكتت هذه ولا صبرت تلك.

وعلى هذه القافية ذكر الترمذي عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- أنها أتت إلى الحجون تزور قبر أخيها عبد الله، فلما وقفت بكت وقالت: «وَاللهِ مَا مَثَلِي وَمَثَلُكَ - يَا عَبْدَ اللهِ - إِلاَّ كَمَا قَالَ مُتَمِّمُ بْنُ نُوَيْرَةَ - يرثي أخاه مالكاً -:

وَكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ بُرْهَةً ... مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ: لَن يَتَصَدَّعَا

وَعِشْنَا بِخَيْرٍ فِي الْحَيَاةِ وَقَبْلَنَا ... أَصَابَ الْمَنَايَا رَهْطَ كِسْرَى وَتُبَّعَا

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكاً ... لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

وفي بيت آخر لا يُلحق بالقصيدة يقول بعضهم:

فَلَيْتَ الْمَنَايَا كُنَّ خَلَّفْنَ مَالِكَاً ... فَعِشْنَا جَمِيعَاً أَوْ ذَهَبْنَ بِنَا مَعَا

فدل على اهتمام العرب بالبكاء وبالعيون، حتى إني رأيت الأعور السُّلَمِي وله ابن ضلّ منه، فبكى عليه كثيراً، فكان يقول:

بَكَيْتُ بِعَيْنٍ لَيْسَ فِيهَا غَضَاضَةٌ[1] ... وَعَيْنٌ بِهَا رَيْبٌ مِنَ الْحَدَثَانِ

عَذِيرُكَ يَا عَيْنِي الصَّحِيحَةَ بِالْبُكَا ... فَمَالَكِ يَا عَوْرَاءُ وَالْهَمَلَانِ؟

يقول: أعذرك يا صحيحة، والبكا، فما بك يا عوراء؟

فكانوا يرسلون دموعهم وقت الفراق ووقت الحزن وفقد الابن ونحو ذلك، ولكن دموع المؤمنين يُثاب عليها صاحبها إذا احتسب، وأما دموع التسخط فإني أخشى على صاحبها منها، حتى إن كثيراً من الناس كانوا يبكون بكاء الفرح؛ لأن هناك دموع فرح وهي باردة ودموع حزن وهي حارة، وفيها يقول أبو هلال العسكري: إنه بُشِّر بابن فبكى وبُشِّر بموته فبكى، قال:

يَا عَيْنُ، صارَ الدَّمْعُ عِنْدَكِ عَادَةً ... تَبْكِينَ فِي فَرَحٍ وَفِي أَحْزَانِ

طَفَحَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّنِي ... مِنْ عِظْمِ مَا قَدْ سَرَّنِي أَبْكَانِي

قالوا: إذا اشتد فرح الإنسان إلى درجة لا يملك نفسه انفجر باكياً، ولذلك ترى الأم إذا طالت غيبة ابنها ثم وفد إليها فإذا هي تبكي؛ ما استطاعت أن تعبر بالضحك، ومثلما ورد في الحديث الصحيح أن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه - سيد القُرَّاء أبو المنذر - أتاه ﷺ وقال: «**إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أقرأ عليك البينة. قال: وسماني في الملأ الأعلى؟!**». أي: آلله قال: اقرأ على أُبَيّ بن كعب؟! وسماه

(١) أي: بعينه الصحيحة.

الله ﷻ، قال ﷺ: «سمّاك». فبكى أُبَيٌّ بن كعب رضي الله عنه، فبكاؤه هذا من شدة الفرح على ما بشره به سيد الخلق ﷺ.

ومن هذا الباب ما ذُكِر عن ابن عباس «في مسألة العيون ووصفها، حتى إنه قبل ذلك كان يزيد بن هارون الواسطي محدثاً مشهوراً كبيراً عالماً ذهبت عيناه، فقيل: ما فعل الله بعينيك يا يزيد بن هارون؟ قال: أذهبهما بكاء الأسحار. حتى قال ابن عباس»:

إِنْ يَأْخُذِ اللهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُورَهُمَا ... فَفِي فُؤَادِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ

عَقْلِي ذَكِيٌّ وَقَلْبِي غَيْرُ ذِي عِوَجٍ ... وَفِي فَمِي صَارِمٌ كَالسَّيْفِ مَشْهُورُ

فهنيئاً لمن دمعت عينه من خشية الله وتقواه، حتى إن من السبعة الذين يُظِلُّهُمُ الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلهُ كما أخبر سيد الخلق ﷺ: «رَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ». أي: حيث لا رياء ولا سمعة ولا يراه أحد. وهؤلاء الشعراء حينما يتحدثون عن مسألة الدموع فإنهم يسهبون ويبالغون، حتى يقول أبو الطيب:

بَادِرْ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا ... وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

في قصيدته التي مدح فيها ابن العميد وهي من أشهر قصائده، يقول في ابن العميد:

مَنْ مُخْبِرُ الأَعْرَابِ أَنِّي بَعْدَهُم[1] ... جَالَسْتُ جَالِينُوسَ وَالإِسْكَنْدَرَا

وَقَرَأْتُ بَطْلِيمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ ... مُتَبَدِّيًا مُتَعَلِّمًا مُتَحَضِّرَا

قَطَفَ الرِّجَالُ الْقَوْلَ قَبْلَ نَبَاتِهِ ... وَقَطَفْتَ أَنْتَ الْقَوْلَ لَمَّا نَوَّرَا

(١) أي: ترك العرب وراح إلى فارس.

على مذهب الشعراء في المبالغة إلا المتنبي؛ فإن له أبياتاً في العيون وفي البكاء، حتى إنه يقول:

إنَّ الْمُحِبَّ مُضَرَّجٌ بِدُمُوعِهِ ... مِثْلَ الْقَتِيلِ مُضَرَّجٌ بِدِمَائِهِ

في قصيدته التي يقول فيها:

لا تَعْذُلِ الْمُشْتَاقَ فِي أَشْوَاقِهِ ... حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْشَائِهِ

ويقولون: إن أبدع ما فعله العرب الفراقيات. لأن الفراق هذا هو الموت الأحمر، كما يقول صاحب (طوق الحمامة). فها هو أبو الطيب يقول:

لَوْلا مُفَارَقَةُ الأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ ... لَهَا الْمَنَايَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلا

الفراق موت أحمر، حتى إنه قيل لجعفر الصادق: لماذا لا تتخذ لك إخواناً؟ قال: خوف وحشة الفراق. لأني إذا آخيتهم، ثم ابتعدوا عني وفارقوني، فلا أستطيع أن أواصل. وكان ابن المبارك إذا ودَّع إخوانه في الله يبكي ويقول:

وخَفَّفَ وَجدِي في البُعَادِ لأنَّه ... فِرَاقُ حَيَاةٍ لا فِرَاقُ مَمَاتِ

أي: إن الذي خفف عليه المصيبة أنه يفترق ثم يعود، إلا فراقاً واحداً ليس فيه عودة وهو الموت ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]. فينبغي للإنسان إذا فارق أحبابه أن يتذكر ذاك الفراق، وإذا سافر من مكان أن يتذكر ذاك السفر، وإذا ودَّع المحبين أن يتذكر وداع الدنيا والقدوم عليه ﷻ، فهذا شأن الأدب العربي في استخدام الفراقيات، وهو الذي يُسمى عند الدموع لغة العيون، فإن العين هي الموضحة وهي الجالية لما يعتقد صاحبها، وهي التي تُظهر الأسرار من خلال خلجاتها، ومن خلال تقلباتها، فلذلك ذكروا دموعهم وذكروا أساها وكيف أنهم تأثروا، وكيف أن ذاك دمعت عيناه وأرسل دموعه على حبيبه.

ذهبت إلى طهران في إيران من أجل ديوان السعد الشيرازي؛ لأن عنده حكمة، حتى يقول من ضمن أبيات جميلة:

مَا مَرَّ طَيْفُ الْهَوَى بِمَسْمَعِي ... لَوْ سَمِعْتُ حَمَامَ الحِمَى نَاحَتْ مَعِي

يا مَعْشَرَ الخِلاَّنِ قُولُوا للمُعَافَى: ... لَيسَ تَدرِي مَا بِقَلْبِ المُوجَعِ

وهو صاحب المقطوعة المشهورة، فهي مقطوعة عالمية تُرْجِمَت إلى لغات كثيرة، يقول:

قَالَ لِي المَحْبُوبُ لمَّا زُرتُهُ: ... مَنْ بِبَابِي؟. قُلْتُ: بِالبَابِ أَنَا

قَالَ لِي: أَخطَأْتَ تَعْرِيفَ الهَوَى ... حِينَمَا فَرَّقْتَ فِيهِ بَينَنَا

وَمَضَى عَامٌ فَلَمَّا جِئْتُهُ ... أَطْرُقُ البَابَ عَلَيهِ مُوهَنَا

قَالَ لِي: مَنْ أنتَ؟ قُلتُ: انظُر فَمَا ... ثَمَّ إلاَّ أنتَ بالبَابِ هُنَا

قَالَ لِي: أَحْسَنْتَ تَعرِيف الهَوَى ... وعَرَفْتَ الحُبَّ فَادْخُل يَا أَنَا

فسموها: يا أنا. في الاتحاد العالمي، حتى إن بعضهم يقول: إنها موجودة الآن في مجلس الأمن باللغات لاتحاد الأمة. أي: أنا وأنتم شيء واحد. ويُذَكِّرُني ذلك بهنقة وهو أحمق، يقول: إن أمه ألبسته قلادة ونام بها، ثم قام أخوه وهو نائم وأخذ القلادة من عنقه وكان عهده أن القلادة في عنقه، فأيقظ أخاه من النوم، فقال: يا أخي، أنت أنا فمن أنا؟. وذكَّرَني ذلك بأبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو أرفع وأجل وأعظم - وهذا يسمونه شاهداً - أتى فكتب لعيينة بن حصن كتاباً أن له قطعة أرض، أي: هبة وأعطية. لأنه خليفة رسول الله ﷺ، فقال: «**ارْسُمْهَا وَاخْتُمْهَا يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ، قال: الْخِتْمُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه**». لأنه كان قاضي المدينة والختم عنده، فذهب عيينة لابن الخطاب، وإذا هو يُطلِي إبل الصدقة في سبيل الله، كان يطليها يريد الأجر والمثوبة رضي الله عنه، ولا غرو، فهو من

أولئك الملأ الأبرار، فقال: هذا خطاب من خليفة رسول الله ﷺ أقطعني الأرض الفلانية من جبل كذا إلى جبل كذا. قال: «**ائْتِني بالْخطَاب**». فقرأه فمزَّقه عمر رضي الله عنه قال: تُمَزِّق خطاب أبي بكر رضي الله عنه ولم تختمه؟!. قال: «**كُنَّا نَتَأَلَّفُكُمْ يَا عُيَيْنَةَ، وَالإِسْلامُ كَانَ ضَعِيفاً، أَمَّا الإِسْلامُ فَقَدْ أَصْبَحَ بَارِزَاً قَارِحاً قَوِيّاً، فَإِن ارْتَدَتْ ضَرَبْنَاكَ بِالسَّيْفِ**». فعاد إلى الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مغضباً، فقال: «**أَنْتَ الْخَلِيفَةُ أَمْ عُمَرُ؟!. قَالَ: أَنَا هُوَ غَيْرَ أَنَّهُ إِيَّايَ**». أي: ما الفرق بيني وبينه؟ أبو بكر عمر وعمر أبو بكر. فهما روح في جسدين، ولذلك جمع بينهما الإسلام والدين، فصار الواحد منهم يقول كلمته، حتى إن أبا بكر رضي الله عنه سكت في اليوم الثاني لوفاة رسول الله، بعدما تكلم في اليوم الأول وأُغْمِي على عمر رضي الله عنه، فتكلم وكان فارس الحلبة ذاك الوقت أبو بكر رضي الله عنه، وفي اليوم الثاني رجع أبو بكر رضي الله عنه يبكي لما تذكر المنبر ووفاة رسول الله ﷺ، فقام عمر رضي الله عنه يخطب في الناس وقال: «**بَايِعُوا أَبَا بَكْرٍ**». وذكر مناقبه وأخذ يد أبي بكر أمام الناس ورفعها، وأخذ يقيمها للناس ويبايع أبا بكر «فهؤلاء هم الملأ الأخيار».

ونعود إلى كلمة السعد الشيرازي؛ لأن هناك أدباً عربياً وأدباً فارسياً، حتى إنهم يجعلون الشعراء العالميين الخمسة في هذا العصر: شكسبير من الإنجليز، ومحمد إقبال من باكستان، وطاغور من الهند، وجلال الدين الرومي من تركيا، والسعد الشيرازي من إيران. وعموماً وُجِدَ في العصر شعراء كبار، لكن لأن هؤلاء تُرْجِمَ شعرهم للغات كثيرة وهم يُخاطِبُون العالم في شعرهم، وإلا فإن في العرب شعراء أقوياء، لكن بعضهم محلي إقليمي وبعضهم لم يُترجم شعره للناس، فنرجع ونقول: إن من أحسن ما يقوله العرب إذا ذكروا الشجا وذكروا الفراق، حتى إن أحدهم يقول:

شَكَا أَلَمَ الْفُرَاقِ النَّاسُ قَبْلِي ... وَرُوِّعَ بِالْجَوَى حَيٌّ وَمَيْتُ

وَأَمَّا مِثْلَ مَا ضَمَّتْ ضُلُوعِي ... فَإِنِّي مَا سَمِعْتُ وَمَا رَأَيْتُ

والطنطاوي استحسن مثل قول مجنون يوم يقول:

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ[1] الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِن هُمَا شَفَيَانِي

يقول: أتيت عند عراف اليمامة وعراف نجد، فقلت: احتكموا في أمري، وخذوا ما تريدون من الإبل والمال [ما شئتم]. على أن تداوياني من هذا الحب وهذا الهوى، فوالله ما مِنْ رُقية يعلمانها ولا شربة إلا بها سقياني، فقالا: شفاك الله، والله ما لنا بك حيلة:

فَقَالاَ: شَفَاكَ اللهُ واللهِ مَا لَنَا بِمَكْنُونِ مَا تَحْوِي الضُّلُوعُ يَدَانِ

فالإنسان إذا تولّع بشيء صار همه وكاد يقتله، حتى إنهم يذمون العشق.

وقد قرأت لابن عباس «يوم عرفة قال: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْعِشْقِ، أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْعِشْقِ». لأنه رأى رجلاً في عرفة يمشي كالموسوس، قال: ما هذا؟ قالوا: عاشق كاد يذهب عقله وأُصيب بالذهول. فقال ابن عباس : «أعوذ بالله من العشق».

والمتنبي في القافية يقول في قصيدة مشهورة له:

وَعَذَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لا يَعْشَقُ؟!

وَعَذَرْتُهُ وَعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنَّنِي عَيَّرْتُهُمْ فَلَقِيتُ مِنْهُمْ مَا لَقُوا

يقول: ابتلاني الله؛ لأنني كنت أستهزئ بهم، فقلت: كيف يعشق الإنسان؟!. ولكن الأولياء لهم حب أرفع وأسمى وهو حب الواحد الأحد؛ يحبهم ويحبونهم، حتى إن أحد الصالحين الأخيار من الشعراء يقول:

إِذَا كَانَ حُبُّ الْهَائِمِينَ مِنَ الْوَرَى بِلَيْلَى وَسَلْمَى يَسْلُبُ اللُّبَّ والْعَقْلا

فَمَاذَا عَسَى يَصْنَعُ الْهَائِمُ الَّذِي سَرَى قَلْبُهُ شَوْقاً إِلَى الْعَالَمِ الأَعْلَى

(١) عروة بن حزام.

إذا كان حب المرأة وحب المال وحب المنصب يسلب العقل، فكيف بمن أحب الله ﷻ؟!. ولذلك أعظم كلمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٥٤]. حتى يقول الألوسي يمدح الواحد الأحد في الحب:

إِلَيْكَ وَإِلاَّ لا تُشَدُّ الرَّكَائِبُ ... وَمِنْكَ وَإِلاَّ فَالْمُؤَمِّلُ خَائِبُ

وَفِيكَ وَإِلاَّ فَالْغَرَامُ مُضَيَّعٌ ... وَعَنْكَ وَإِلاَّ فَالْمُحَدِّثُ كَاذِبُ

فنسأل الله أن يجعلنا من أحبابه، وليس العجب من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. فإنه ﷻ خلقهم ورزقهم لكن العجب من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. كيف أنه خلقهم وأعطاهم ومنحهم وتولاهم، ثم أحبهم ﷻ، ومفاتيح محبته ﷻ القيام بالفرائض وتلاوة كتابه بتدبر وكثرة ذكره، وعمل الصالحات واتباع سيد الخلق ﷺ وتجديد التوبة وكثرة الاستغفار. فهذا هو الذي يبلغ درجات الصديقية عند الله الواحد الأحد.

أُحِبُّكَ لا تَفْسِيرَ عِنْدِي لِصَبْوَتِي ... أُفَسِّرُ مَاذَا وَالْهَوَى لا يُفَسَّرُ

obeikandl.com

قصة وقصيدة

نعني بها القصة التي عُمِلَت من أجلها القصيدة ونُظِمَت، لأن الشعر إذا اتفق مع النثر أنتجا إبداعاً بشرياً.

ومن ذلك أنه ﷺ قبل أن يغزو مكة ويفتحها منتصراً؛ ليعيد الحق إلى نصابه وليؤسس دولة العدل في العالم، وليقيم الحضارة الربانية، إذ كان ﷺ خرج شريداً طريداً من مكة، لكن انظر إلى نصره عز وجل جمع له القبائل والناس، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فأتى يزحف بالجيش إلى مكة، وقبلها يقول حسان رضي الله عنه كأنه ينظر إلى المعركة ويراها وهو شاعر الإسلام شاعر الرسول ﷺ،

يقـرب له الرسول ﷺ المنبر ويقول: «اهْجُهُمْ وَرُوحُ الْقُدُسِ يُؤَيِّدُكَ». أي: جبريل معـك. فما هو بأي كلام، حتى السماء معه، حتى يأتيك حسان رضي الله عنه بالقافية كأنها صاعقة تُحرق ما قبلها، حتى يقول حسان رضي الله عنه:

وَبِيَـوْمِ بَـدْرٍ إِذْ يَصُدُّ وُجُوهَهُمْ ... جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوائِنَا وَمُحَمَّدُ

يقول: قيادة السماء مع جبريل عليه السلام وقيادة الأرض مع محمد ﷺ، والصحيح أن الـذي قـاد الملائكة -عليهـم السلام- وقـاد الصحابة رضي الله عنهم هـو محمد ﷺ، فالقيادة العليا في يد الرسول ﷺ، فقبل معركة بدر يقول حسان رضي الله عنه:

عَـدِمْنَـا خَـيْلَنَا إِنْ لَـمْ تَـرَوْهَـا ... تُـثِـيـرُ الـنَّـقْـعَ مَـوْعِـدُهَـا كُـدَاءُ

يقـول: لا رد الله علينـا خيلنـا، لا جعلها ترجـع إذا لم تروها تثيـر الغبار في مداخـل مكة طوابير تدخل في مواكب مع رسـول الله ﷺ، والنقع: الغبار. وكداء: جبل كُدَيّ يُقابله في مكة. حتى يقول ابن الفارض:

مَـنْ لِقَلْبٍ حَـلَّ جَـرعَـاءَ الحِمَى ... ضَـاعَ مِـنِّـي هَـلْ لَـهُ رَدٌّ عَلَـي

فَـاسْـأَلُـوا سُـكَّـانَ وادِي سَـلَـمٍ ... فَـهُـوَ مَـا بَـيْـنَ كُـدَاءَ وكُـدَي

فحسان رضي الله عنه قبل المعركة يقول:

عَـدِمْـنَـا خَـيْلَنَا إِنْ لَـمْ تَـرَوْهَـا ... تُـثِـيـرَ الـنَّـقْـعَ مَـوْعِـدُهَـا كُـدَاءُ

تَـظَـلُّ جِـيَـادُنَـا مُـتَـمَـطِّـرَاتٌ ... تُـلَـطِّـمُـهُـنَّ بِـالـخُـمُـرِ الـنِّـسَـاءُ

أي: إن الفارس يأخذ راحتـه، يسبح سبحاً، يقفز بالبطـل، على ظهره خالد بـن الوليد وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، يسبح بهم سبحاً، كأنه يسبح في الموج.

فَإِمَّا تُعرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا

يقول: دعونا نكمل العمرة، دعونا فالحق معنا، دعوا محمداً ﷺ يدخل البيت.

وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ

انتهى الموضوع وبان الحق من الباطل، بان الصدق من الكذب وأنتم على الكذب.

وَإِلاَّ فَاصْبِرُوا لِجِلادِ يَوْمٍ ... يُعِزُّ اللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ

أي: دعونا نتصارع نحن وأنتم، ونتجالد بالسيوف والله يعز من يشاء.

وَقَالَ اللهُ: قَد أَرْسَلْتُ جُنْدَاً ... هُمُ الأَنْصَارُ عُرْضَتُهُ اللِّقَاءُ

وأنعم بالأنصار ﷺ ورحمهم وجزاهم الله خيراً عن الإسلام والمسلمين.

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ

فَنَهْجُو بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا ... وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ

ثم عرَّض بأبي سفيان بن الحارث، وكان يهجو رسول الله ﷺ فقال:

أَلا أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي ... مُغَلْغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ

بِأَنَّ جُيُوشَنَا تَرَكَتْكَ عَبْدَاً ... وَعَبْدَ الدَّارِ سَادَتُهُ الإِمَاءُ

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ

وهذا قبل إسلامه، لكنه أسلم فيما بعد ﷺ، وحتى كل الأمة لا تصل ذرة من جلاله ﷺ.

. . . . . فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

هَجَوْتَ مُبَرَّأً بَرَّاً رَحِيماً ... رَسُولَ اللهِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

لا يعدله أحد ﷺ.

وانطلقت الجيوش فاتحة وأتى رسول الله ﷺ فقسَّم الجيوش على أربعة أقسام تدخل مكة من أربع جهات، دخلت ثلاثة منها دون مواجهة إلا جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه فتعرَّض له عكرمة رضي الله عنه وأناس معه عند الخندمة، مدخل من مداخل مكة.

وجاء أحد كفار قريش وكان يسقي سيفه السم قبل دخول المسلمين، تقول زوجته: ما لك؟. قال: أقتل بهذا محمداً. ويوم جاء المعركة حضر هذا بسيفه الذي سقاه سماً، إذ أقبل سيف الله المسلول خالد بن الوليد أبو سليمان رضي الله عنه، وأقبل بالخيول وفلول المسلمين، ولما اقترب من عكرمة رضي الله عنه ومن معه فخرج لهم خالد، أي: أظهر أنه فارٌّ منهزم. ثم اغترَّهم فخرجوا له، فلما خرجوا بخيولهم كرَّ عليهم خالد رضي الله عنه ولعب فيهم وصفَّى حسابهم في ذلك اليوم، هرب صاحب السيف ودخل غرفته وأغلق الباب فقالت امرأته: قاتلك الله، أما قلت: تقتل محمداً. فقال:

إِنَّكِ لَوْ شَهِدْتَ يَوْمَ الْخَنْدَمَهْ ... إِذْ فَرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عِكْرِمَهْ

يقول: فر الأبطال والقادة.

وَالْمُسْلِمُونَ خَلْفَنَا فِي غَمْغَمَهْ ... لَمْ تُنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ

يُطَارِدُونَ بِالسُّيُوفِ الْمُثْلَمَهْ ... .

يقولون: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. مثلمة: مكسرة. ليست كيسوفنا. يقول النابغة:

وَلا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

والشاهد أنه دخل ﷺ مع كتيبته الكتيبة الخضراء، معه ألف من الأنصار ما يُرى منهم إلا العيون، كلهم عليهم الحِدَقُ والخوذات والدروع والسيوف، انظر النصر العظيم، استلم مكة عاصمة الدنيا، نصر نصراً عزيزاً صفقت له أبواب السماء ونزّلت الملائكة وفُتِحَت الجنان له، دوى الدهر والتاريخ وقف وكل الزمان

وقف، أكبر نصر في العالم، أتى ودخل ﷺ ينظر، فإذا المعان السيوف هناك وإذا الخيول، ثم نظر وإذا في أحد طرق مكة وإذا خيول خالد رضي الله عنه شهباء أقبلت حافية حامية، وإذا النساء تخرج الواحدة عليها خمارها وتضرب وجه الفرس، فأخذ يتبسم ﷺ وأخذ يده على فمه، وقال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، - وكان أبو بكر رضي الله عنه يحفظ الشعر ويرويه - كَيْفَ يَقُولُ حَسَّانُ؟. قَالَ: يَقُولُ - يَا رَسُولَ اللهِ -:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كُدَاءُ

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٌ ... تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ

فتعجب رسول الله ﷺ من أن حسان رضي الله عنه قدَّم هذه الصورة المشرقة، فأتت مثلما قال رضي الله عنه، وهذه قصة قصيدة حسان: عدمنا خيلنا.

أما بيت مشهور لعلي بن جهم الشاعر الصالح الناصح فيقول فيه:

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرَّصَافَةِ وَالْجِسْرِ ... جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلَا أَدْرِي

الرصافة في بغداد والجسر جسر الكرخ، فقد كان الشاعر في البادية وعنده غنم وما كان يعرف إلا التيس والكلب، يرعى الغنم ويرى التيس إذا نطح التيس الآخر وطرحه فظن أن أشجع شيء في العالم التيس؛ لأن البيئة تصنع أفكار الإنسان فلا يعرفون إلا هذا، ورأى الكلب مثلاً للوفاء، إذ لا ينبح صاحبه، فذهب مع الشعراء من البادية ودخل مع الشعراء على المتوكل الخليفة العباسي، وجاء الشعراء أهل الحضارة يمدحونه، وجاء هو على نيته، فوقف عند المتوكل، وقال:

أَنْتَ كَالْكَلْبِ فِي حِفَاظِكَ لِلْوُدِّ ... وَكَالتَّيْسِ فِي قِرَاعِ الْخُطُوبِ

فيقول: إنك مثل الكلب في الوفاء، ومثل التيس في الشجاعة. وهو شاب بدوي، فقال وزير المتوكل: أمسكوه. قال المتوكل: دعوه، أين عشت؟. قال: أنا عشت في البادية يا أمير المؤمنين. قال: اتركوه؛ هو لا يعرف إلا البادية يظن أنه

مدحنا، خذوه سنة في الكرخ- والكرخ: مدينة ذات منزلة ومكانة عالية- دعوه يرى الحياة ويرى الدنيا. فراح وسكن هناك فرأى هؤلاء الذين يمرون والحدائق الغناء والبساتين، ونهر دجلة يضرب ذات اليمين وذات الشمال والحدائق تتمايل، وبعد سنة قال المتوكل: أدخلوه مع الشعراء. فلما دخل بعد سنة، قال: أنشد. قال:

عُيُون الْمَهَا بَيْنَ الرّصَافَةِ وَالْجِسْرِ ... جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلا أَدْرِي

أَعَدنَ لِيَ الشَوقَ القَديمَ وَلَم أَكُنْ ... سَلَوتُ وَلكِن زِدْنَ جَمراً عَلى جَمرِ

قصيدة من أجمل ما قيل، والمها الغزال، يقصد النساء. جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري: شيء أعرفه وشيء لا أعرفه.

وقلْنَ لنا: نَحْن الأهِلَّةُ إنَّمَا ... تُضيءُ لِمَن يَسري بِلَيلٍ وَلا تَقري

فَلا بَدْلَ إلاّ ما تَزَوَّدَ ناظِرٌ ... وَلا وَصلَ إلاّ بِالخَيالِ الَّذي يَسري

أحينَ أزحنَ القَلبَ عَن مُستَقَرِّهِ ... وَأَلْهَبنَ ما بَينَ الجَوانِحِ وَالصَدرِ

صددنَ صدودَ الشاربِ الخمرَ عندما ... روى نفسَهُ عن شربها خيفةَ السكرِ

فَإن حُلنَ أَو أَنكَرنَ عَهداً عَهِدنَهُ ... فَغَيرُ بَديعٍ لِلغَواني وَلا نُكرِ

وَلكِنَّهُ أَودى الشَبابُ وَإنَّما ... تُصادُ المَها بَينَ الشَبيبَةِ وَالوَقرِ

كَفى بِالهَوى شُغلاً وَبِالشَيبِ زاجِراً ... لَوَ انَّ الهَوى مِمّا يُنَهنَهُ بِالزَجرِ

كَفاكُم بِأَنَّ اللهَ فَوَّضَ أَمرَهُ ... إلَيكُم وَأَوحى أَن أَطيعوا أُولي الأَمرِ

وَلَم يَسأَلِ الناسَ النَبِيُّ مُحَمَّدٌ ... سِوى وُدِّ ذي القُربى القَريبَةِ مِن أَجرِ

وَلَن يُقبَلَ الإيمانُ إلاّ بِحُبِّكُم ... وَهَل يَقبَلُ اللهُ الصَلاةَ بِلا طُهرِ

وَمَن كانَ مَجهولَ المَكانِ فَإنَّما ... مَنازِلُكُم بَينَ الحَجونِ إلى الحِجرِ

وُجوهُ بَني العَبّاسِ لِلمُلكِ زينَةٌ ... كَما زينَةُ الأَفلاكِ بِالأَنجُمِ الزُهرِ

وَلا يَستَهِلُّ المُلكُ إلاّ بِأَهلِهِ ... وَلا تُرجَعُ الأَيّامُ إلاّ إلى الشَهرِ

إلى آخر ما قال في قصيدة طويلة، فأعطاه جائزة، وقال: هكذا يكون الشعر.

فالإنسان ابن بيئته وعلى تصوره ولذلك يُحبِّذون أن تتكلم عن البيئة فلا تذهب إلى البادية وتتكلم عن مشكلة العمل والعمال والبورصة والأسهم، ولا تذهب إلى المدينة تتكلم عن الأشجار المُتَنَازَع عليها في البادية، أو عن صندوق القبيلة، لكل مقام مقال، هذه قصتها.

أسلم بُجير أخو كعب بن زهير رضي الله عنه فغضب كعب بن زهير، فهجا الرسول ﷺ وهجا دينه، فأهدر رسول الله ﷺ دمه؛ لأنه سب الإسلام وسب الدين وسب الرسالة واستهزأ، فاستشار العرب فقالوا له: ما دمت تعرضت لمحمد فقد انتهى الموضوع، ما لك إلا أن تُسلِّم نفسك له. فيروى: «**فأتى وَصَلَّى الْفَجْرَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بَعْدَمَا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ جَلَسَ عِنْدَهُ، قَالَ: مَنْ أَنْتَ؟. قَالَ: كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ**». وكان ﷺ حليماً وهو سيد الحلم، قال: «**يَا رَسُولَ اللهِ، اسْمَعْ مِنِّي: بَانَتْ سُعَادُ. قَالَ ﷺ: مَنْ سُعَادُ؟. قَالَ: زَوْجَتِي. قَالَ: لَمْ تُبن إِذاً**». وشعراء العربية لا بد من أن يبدؤوا بالغزل، وقال:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

ثم مضى فيها، فقال:

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي ... وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ

مَهلاً هَداكَ الَّذي أَعطاكَ نافِلَةَ الـ ... قُرآنِ فيها مَواعيظٌ وَتَفصيلُ

لا تَأْخُذَنّي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ ... أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِيَّ الْأَقَاوِيلُ

وقال:

وَقالَ كُلُّ خَليلٍ كُنْتُ آمَلُهُ ... لا أُلْهِيَنَّكَ إِنّي عَنْكَ مَشْغُولُ

مازِلْتُ أَقْتَطِعُ البَيداءَ مُدَّرِعاً ... جُنحَ الظَلامِ وَثَوبُ اللَيلِ مَسبولُ

حَتّى وَضَعتُ يَميني لا أُنازِعُهُ ... في كَفِّ ذي نَقِماتٍ قِيلُهُ القيلُ

لَذاكَ أَهْيَبُ عِندي إذ أُكَلِّمُهُ ... وَقيلَ: إنَّكَ مَسبورٌ وَمَسؤولُ

مِن ضَيغَمٍ مِن ضِراءَ الأُسدِ مُخدِرَةً ... بِبَطنِ عَثَّرَ غيلٌ دونَهُ غيلُ

إنَّ الرَّسُولَ لَنورٌ يُستَضاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ مِن سُيُوفِ اللهِ مَسلُولُ

في عُصبَةٍ مِن قُرَيشٍ قالَ قائِلُهُم ... بِبَطنِ مَكَّةَ لَمّا أَسلَموا زُولُوا

شُمُّ العَرانينِ أَبطالٌ لَبوسُهُمُ ... مِن نَسجِ داوُدَ في الهَيجا سَرابيلُ

يَمشونَ مَشيَ الجِمالِ الزُهرِ يَعصِمُهُم ... ضَربٌ إذا عَرَّدَ السودُ التَّنابيلُ

لا يَقَعُ الطَعنُ إلّا في نُحورِهِمُ ... ما إن لَهُم عَن حِياضِ المَوتِ تَهليلُ

إلى آخر ما قال وعفا عنه رسول الله ﷺ وخلع له بردته، فتسمى هذه البردة، ونظم فيه البوصيري قصيدة يقول فيها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ ... مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ ... وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظَّلْمَاءِ مِنْ إِضَمِ

فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ: اكْفُفَا هَمَتَا ... وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ: اسْتَفِقْ يَهِمِ

وسار عليها شوقي، فيقول:

رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ ... أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ

رَمَى الْقَضَاءُ بِعَيْنَيْ جُؤْذُرٍ أَسَداً ... يَا سَاكِنَ الْقَاعِ أَدْرِكْ سَاكِنَ الْأَجَمِ

ونظمتُ عليها قصيدة في مدحه ﷺ، فقلت:

أَنْصِتْ لِمِيمِيَّةٍ جَاءَتْكَ مِنْ أَمَمٍ ... مِدَادُهَا مِنْ مَعَانِي نُونِ وَالْقَلَمِ

إِنْ كَانَ أَحْبَبْتُ بَعْدَ اللهِ مِثْلَكَ فِي ... بَدْوٍ وَحَضْرٍ وَفِي عُرْبٍ وَفِي عَجَمِ

فَلَا اشْتَفَى نَاظِرِي مِنْ مَنْظَرٍ حَسَنٍ ... وَلَا تَفَوَّهَ بِالْقَوْلِ السَّدِيدِ فَمِي

هذه قصة: بانت سعاد.

وأذكر في التاريخ المعاصر الحاضر ملك اليمن أحمد بن حميد الدين في الثورة، ثورة الانقلاب التي ما نجحت والجمهوريون كادوا ينجحون في الثورة الأولى عليه، فأسر منهم سبعين ووضعهم في السجن وأخذ كل يوم من أيام الجمعة يقطع رأساً منهم، العلماء والقضاة والأدباء منهم: الكبيسي، وابن النعمان، ومحمد بن محمود الزبيري. أي: كبارهم. فلما وضعهم هناك تشفع فيهم كثير، حتى وفد من جامعة الدول العربية فرفض، حتى إنه يقول لوفد جامعة الدول العربية: لو نزلت السماء حتى تصل إلى هنا وارتفعت الأرض إلى هناك لا أتركهم. لأنهم دبروا ليحيى بن حميد الدين الملك الأول والده، فدخل عليه أحد الشعراء، فقال: ائذن لي ألقي عليك قصيدة، أنا لبست الكفن تحت ثوبي هذا واسمع مني القصيدة إن عفوت فاعفُ عني وإلا فاقتلني معهم. قال له الملك: لِمَاذا؟! قال: لا تصلح اليمن إذا قتل سبعون من علمائهم وقضاتهم ووجهائهم، فما المراد من اليمن؟!. فقال: قل قصيدتك. قال:

يَا أَبَا الْمَجْدِ يَا بْنَ مَاءِ السَّمَاءِ ... يَا سَلِيلَ النُّجُومِ فِي الظَّلْمَاءِ

فَأَجِرْنِي كَالْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ ... حِينَ قَالَ النَّبِيُّ...

يقول: أنت يا بن ماء السماء، يا أبا المجد، من ضمنها يقول: افعل فعل جدك محمد ﷺ - لأمه لأنه من آل البيت - الذي يقول ﷺ: «لَوْ كَلَّمَنِي الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِي فِي أَسْرَى بَدْرٍ كُنْتُ تَرَكْتُهُمْ لَهُ». لأن المطعم بن عدي مشرك، لكن من أعيان مكة، طاف الرسول ﷺ في حمايته ومنعه وأجاره فلما هاجر الرسول ﷺ وانتصر في بدر وأتى بالسبعين من الأسرى، قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَلَّمَنِي الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِي فِي هَؤُلاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ». سبعون وأولئك سبعون.

قال: قد أجرتك وقد عفوت عنهم جميعاً. فأطلقهم ومنهم الزبيري الذي ذهب إلى باكستان، وخاطب اليمن في قصيدة رائعة ذائعة.

وهنـا بعض الوقفـات السريعة، المتنبـي أتى يمدح سيف الدولـة وعنده ابن خالويـه النحوي، وبعض النحاة يتقعرون ويتشدقون في الشعر، والنحو والعبقرية، مـا يعرفون الدخول في تفاصيل، والمتنبي عبقـري في الشعر لكن الحاسد يبحث عن العيوب في أشعارك وفي كتبك وفي أخلاقك، فكان ابن خالويه جالساً وسيف الدولة يستمع، فيقول المتنبي قصيدته القوية الرائعة:

نَـعُـدُّ الْـمَـشْـرَفِـيَّـةَ وَالْـعَـوَالِـي وَتَـقْـتُـلُـنَـا الْـمَـنُـونُ بِـلا قِـتَـالِ

يقول: نجهز الرماح والسيوف من أجل أن نقاتل بها العدو، بينما تأتي المنايا ما يقاتلن بسلاح، يقتلننا على الفرش والوسائد.

وَنَرْتَبِط السَّوَابِقَ مُقْرَبَاتٍ

يقول: حتى الخيول جهزناها نصبح العدو بها.

فَمَا يُنْجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي

يقول: وراءنا الليالي أقبلت.

كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مُحَالِي

قال ابن خالويه: لو قلت: مستقيم في اعوجاج. كان أحسن، قال: كي أقول في البيت الثاني:

وَإِنْ تَـفُـقِ الْأَنَـامَ وَأَنْـتَ مِـنْـهُـمْ فَـإِنَّ الْـمِسْـكَ بَـعْـضُ دَمِ الْـغَـزَالِ

هذا من إشراقات المتنبي ولعلها فُهِمَت؛ لأنك إن اضطررتني أن أغير الجيم في محالي فتكون اعوجاجي لتغير الروي وفسد المعنى.

كلمة الحب

كلمة الحب كلمة جميلة مُشْرِقة، لا يُعبِّر عن الحب إلا كلمة الحب، وهو متكون من حرفين، حتى إن الشفتين حينما ينطق الإنسان بالحب تلتقيان بعد فراق وبعد قطيعة، والله ﷻ ذكر الحب في كتابه في آية موحية ومؤثرة فيقول ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤]. أي: إن أولياءه ﷻ والصالحين من

عباده يحبهم ﷻ، وليس العجب من قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. فإنه هو الذي خلقهم وأعطاهم ووهبهم ﷻ، لكن العجب من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. فكيف أنه هداهم واجتباهم ووفقهم ثم أحبهم ﷻ.

وقد تبارى الشعراء والحكماء في مسألة الحب، فمنهم من صرفها للمال ومنهم من صرفها للثروة وللمنصب ومنهم من صرفها للمرأة وإلى غير ذلك، ونقف وقفات مع بعض الشعراء.

فبشار بن برد كان أعمى بصر وأعمى قلب وذهب إلى ربه، فيقول هو:

يَا قَوْمِ، أُذُنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةٌ وَالْأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانَا

لأنه ما كان يرى لكن بالأذن وبالسماع أحب، ويقول: إنهم يقولون له:

وقالوا: لَوْ سَلَيْتَ قَلْبَكَ لارْعَوَى فَقُلْتُ: هَلْ لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبُ

فيقول: ما لنا قلوب أصلاً، فلو كان لنا قلوب لسليناها، لكنها ليست موجودة أصلاً.

ولكن أحد الشعراء يلفت النظر إلى حب آخر وهو حب الواحد الأحد ﷻ، الذي استوجب الشكر واستوجب الثناء الحسن ومن أحبه استوجب الأجر العظيم وسُكنى جنات النعيم، يقول:

إِذَا كَانَ حب الْهَائِمِينَ مِنَ الْوَرَى بِلَيْلَى وَسَلْمَى يَسْلُبُ اللُّبَّ وَالْعَقْلاَ
فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَصْنَعَ الْهَائِمُ الَّذِي سَرَى قَلْبُهُ شَوْقاً إِلَى الْعَالَمِ الأَعْلَى؟

يقول: هؤلاء يُصرعون من أجل امرأة وخدود وعيون، فكيف بمن أحب الباري ﷻ بأسمائه وصفاته؟

والمتنبي يستفتح أبياته وقصائده في العادة بمثل هذا، وله قصيدة رقيقة في الحب والعشق، فيقول:

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ وَمِثْلِي يَأْرَقُ ... وَجَوًى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ

جَهْدُ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أَرَى ... عَيْنٌ مُسَهَّدَةٌ وَقَلْبٌ يَخْفِقُ

مَا لاحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ ... إِلاَّ انْثَنَيْتُ وَلِي فُؤَادٌ شَيِّقُ

وَعَذَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ ... فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لا يَعْشَقُ

فَعَذَرْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنَّنِي ... عَيَّرْتُهُمْ فَلَقِيتُ مِنْهُمْ مَا لَقُوا

معانيها جميلة بلا شك في هذا الباب، وكلنا يبدي وجهة نظره في العشق والحب، حتى إن ابن عباس «يوم عرفة قال: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْعِشْقِ». لأنه رأى رجلاً من المسلمين في عرفة وإذا هو موسوس وفيه ذهول، فقال: «مَنْ هَذَا؟». قالوا: موسوس. قال: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْعِشْقِ». لأنه يُتعب القلب ويُفقد النفس استقرارها؛ لأن صاحبه لا يتدبر القرآن، كما ينبغي ولا يشتغل بالعلم فيبقى كالحيران المذهول.

ومن الشعراء المعاصرين نزار قباني لما ذهب إلى تونس، يقول:

يَا تُونُسُ الْخَضْرَاءُ جِئْتُكِ شَاعِراً ... وَعَلَى جَبِينِي وَرْدَةٌ وَكِتَابُ

إِنَّ الدِّمَشْقِيَّ الَّذِي عَشِقَ الْهَوَى [1] ... إِنَّ الْهَوَى أَلا يَكُونَ إِيَابُ

دَمٌ دِمَشْقِيٌّ يُسَافِرُ فِي دَمِي ... وَسَنَابِلٌ وَخَمَائِلٌ وَقُبَابُ

(١) لأن أصله من دمشق.

الْحُبُّ يَبْدَأُ مِنْ دِمَشْقَ فَأَهْلُهُ ... عَشِقُوا الْجَمَالَ وَنَوَّبُوهُ وَذَابُوا
وَالْمَاءُ يَبْدَأُ مِنْ دِمَشْقَ فأينما ... أَسْنَدْتَ رَأْسَكَ جَدْوَلٌ يَنْسَابُ
وَدِمَشْقُ تَهْدِي لِلْعُرُوبَةِ لَوْنَهَا ... وَبِبَابِهَا تَتَشَكَّلُ الأَحْزَابُ

وأحد الرؤساء زاره رئيس آخر فذهبوا إلى قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه في حمص يزورونه، والأولى بمن يزور قبر حمص أن يُحرر الأرض أولاً، ثم يزور قبر سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه، فنزار اعترض على هذا بقصيدة، يقول فيها:

أَلْقَيْتُ فَوْقَ ثَرَاكَ الطَّاهِرَ الْهَدَبَا ... فَيَا دِمَشْقُ لِمَاذَا نُكْثِرُ الْعَتَبَا
دِمَشْقُ يَا كَنْزَ أَحْلامِي وَمَرْوَحَتِي ... أَشْكُو الْعُرُوبَةَ أَمْ أَشْكُو لَكَ الْعَرَبَا
أَدْمَتْ سِيَاطُ حُزَيْرَانَ[1] ظُهُورَهُمُ ... فَأَدْمَنُوهَا وَدَاسُوا كَفَّ مَنْ ضَرَبَا
وَطَالَعُوا كُتُبَ التَّارِيخِ وَاقْتَنَعُوا ... أن الْبَنَادِق منها تسْكنُ الْكُتُبَا
وَقَبْرُ خَالِدٍ في حِمْصٍ نُلامِسُهُ ... فَيَرْجُفُ الْقَبْرُ مِنْ لأوائه غَضَبَا
يَا بْنَ الْوَلِيدِ أَلا سَيْفٌ تُؤَجِّرُهُ ... فَإِنَّ أَسْيَافَنَا قَدْ أَصْبَحَتْ خَشَبَا

هذا على ذكر حب الديار وحب الوطن الذي قاله، ولكن أحسن قصيدة عنده في الوجد والفراقيات هي قصيدة ابن زيدون: بنتم وبنا. وقد عارضها كثير، لكن ما وصلوا إلى مستواها، الذي يقول فيها:

بِنْتُمْ وَبِنَّا فما ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا ... شَوْقاً إِلَيْكُمْ وَمَا جفّت مآقينَا
تَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا ... يَقْضِي عَلَيْنَا الأَسَى لَوْلا تَأَسِّينَا
لِيَسْقِ عَهْدَكُمُ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا ... كُنْتُمْ لأَرْوَاحِنَا إلا رَيَاحِينَا

(١) نكسة حُزيران وانتصار إسرائيل على العرب.

وشوقي له على البحر والقافية قصيدة يرثي أمه، يقول:

يَا نَائِحَ الطَّلْحِ أَشْبَاهٌ عَوَادِينَا ... نَأْسَى لِمَسْرَاكَ أَوْ تَأْسَى لِنَسْرِينَا

كَنْزٌ بِحَلْوَانَ عِنْدَ اللهِ نَطْلُبُهُ ... خَيْرَ الْوَدَاعِ لِخَيْرِ الْمُحِبِّينَا

لأنها مدفونة بحلوان البلد القريبة من القاهرة، يقصد: والدته.

ويقول ابن خميس:

وَكَانَ صَوْتُ الْفِرَاقِيَّاتِ نَسْمَعُهُ ... فَلا نُحْسِنُ بُكَاءً مِنْهُ يُبْكِينَا

حَتَّى أَصَاخَ لِسَانُ الدَّهْرِ مُلْتَجِئاً ... أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا

وأحدهم أندلسي يقول:

إِنَّ السَّلامَ وَإِنْ أَهْدَاهُ مُرْسِلُهُ ... وَزَادَهُ رَوْنَقاً مِنْهُ وَتَحْسِينَا

لَمْ يَبْلُغِ الْعُشْرَ مِنْ قَوْلٍ يُبَلِّغُهُ ... أُذْنَ الأَحِبَّةِ أَفْوَاهُ الْمُحِبِّينَا

وقال آخر:

آخَيْتُمُونَا عَلَى حُبِّ الإِلَهِ وَمَا ... كَانَ الْخُطَامُ شَرِيكاً فِي تَآخِينَا

شُكْرَاً زَبِيدُ فَقَدْ أَهْدَيْتِ مَا عَجِزَتْ ... عَنْ مِثْلِهُ فِي الوَرَى رُومَا وَبَرْلِينَا

والناس ينظمون على هذا البحر؛ لأنه خفيف ولأنه معجب ومُطَرِّب.

ويقول الطنطاوي: ومن أحسن الأبيات والقصائد ما قال الشهرزوري أحد العلماء الأدباء، وهي جميلة وأخاذة يقول:

لَمَعَتْ نَارُهُمْ [1] وَقَدْ عَسْعَسَ اللَّيْلُ ... وَمَلَّ الْحَالُ بِي وَحَارَ الدَّلِيلُ

(١) أي: ذهب إلى من يُحب.

فَتَأَمَّلْتُهَا وَفِكْرِي مِنَ الْبَيْنِ ... عَلِيلٌ وَطَرْفُ عَيْنِي كَلِيلُ
وَفُؤَادِي ذَاكَ الْفُؤَادُ الْمُعَنَّى ... وَغَرَامِي ذَاكَ الْغَرَامُ الدَّخِيلُ

وهي تُسمى: لمعة نارهم. وهي جميلة على كل حال، والشهرزوري يقول:

وَاللهِ مَا جِئْتُكُمْ زَائِرَاً ... إلاَّ وَجَدْتُ الأَرْضَ تُطْوَى لِي
وَلا انْثَنَى قَلْبِي عَنْ بَابِكُمْ ... إلاَّ تَعَثَّرْتُ بِأَذْيَالِي

وله بيتان جميلان يقول فيهما:

مَرِضَ الْحَبِيبُ فَزُرْتُهُ ... فَمَرِضْتُ مِنْ خَوْفِي عَلَيْهِ
وَأَتَى الْحَبِيبُ يَزُورُنِي ... فَشَفِيتُ مِنْ نَظَرِي إِلَيْهِ

هذا من أجملها، فيقول: مرض الحبيب فعدته ومرضت؛ إشفاقاً عليه فلما زارني تشافيت بإذن الله.

وأما في العُذريات فقصيدة: يا ظبية البان. وهي للشريف الرضي وأحسن قصيدة له على الإطلاق، والشريف الرضي يصل إلى درجة المتنبي في النسيب والمدح والفخر، لكن لا يصل إلى درجة المتنبي في الحكمة، يقول:

يَا ظَبْيَةَ الْبَانِ تَرْعَى فِي خَمَائِلِهِ ... لِيَهْنَكِ الْيَوْمَ أَنَّ الْقَلْبَ مَرْعَاكِ
الْمَاءُ عِنْدَكِ مَبْذُولٌ لِشَارِبِهِ ... وَلَيْسَ يَهْنِيكِ إلاَّ مَدْمَعِي الْبَاكِي
هَبَّتْ لَنَا مِنْ رِيَاحِ الْغَوْرِ رَائِحَةٌ ... بَعْدَ الرُّقَادِ عَرَفْنَاهَا بِرَيَّاكِ
ثُمَّ انْثَنَيْنَا إِذَا مَا هَزَّنَا طَرَبٌ ... عَلَى الرِّحَالِ تَعَلَّلْنَا بِذِكْرَاكِ
سَهْمٌ أَصَابَ وَرَامِيهِ بِذِي سَلَمٍ ... مَنْ بِالْعِرَاقِ لَقَدْ أَبْعَدْتِ مَرْمَاكِ
كَأَنَّ عَيْنَيْكِ يَوْمَ الْجَزْعِ تُخْبِرُنَا ... عَنِ الْمُحِبِّينَ مِنْ أَسْمَاءِ قَتْلاكِ

فقال هذه القصيدة وعارضه من المعاصرين الشاعر الأديب الكبير حمزة شحاتة بكافية على البحر والقافية، وهي جميلة، لكن تبقى (يا ظبية البان) هي المتمكنة في هذا الباب وتُعدُّ من أوائل القصائد.

وقيل: يُنسب إلى خالد بن يزيد بن معاوية، وقيل: لوالده يزيد قصيدة يقول فيها:

وَلَمَّا تَلاقَيْنَا وَجَدْتُ بَنَانَهَا ... مُخَضَّبَةً تَحْكِي عُصَارَةَ عَنْدَمِ
فَقُلْتُ: خَضَبْتِ الْكَفَّ بَعْدِي أَهَكَذَا ... يَكُونُ جَزَاءُ الْمُسْتَهَامِ الْمُتَيَّمِ
فَقَالَتْ وَأَبْدَتْ فِي الْحَشَا حُرَقَ الْجَوَا ... مَقَالَةَ مَنْ فِي القول لَمْ يَتَلَعْثَمِ
وَحَقِّكَ مَا هَذَا خِضَابٌ عَرَفْتُهُ ... فَلا تَكُنْ بِالْبُهْتَانِ وَالزُّورِ مُتْهِمِي
وَلَكِنَّنِي لَمَّا رَأَيْتُكَ رَاحِلاً ... وَقَدْ كُنْتَ لِي كَفِّي وَزَنْدِي وَمِعْصَمِي
بَكَيْتُ دَمَاً يَوْمَ النَّوَى فَخَضَبْتُهُ ... بِكَفِّيَ فَابْتَلَّتْ بَنَانِي مِنْ دَمِي
فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً ... بِسُعْدَى شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَا ... بُكَاهَا، فَقُلْتُ: الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

هذا من أجملها على كل حال.

ونعود إلى مسألة الحب وأحسن الحب هو ما صُرف في طاعة المولى ﷻ، فالله ﷻ ذكر الحب وأن أولياءه أشد حباً لله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فهم أشد حباً من أهل الأوثان لأوثانهم وأهل الأصنام لأصنامهم وأهل المنصب لمناصبهم وأهل المال لمالهم؛ لأن أحباب الله ﷻ صرفوا أعمارهم في خدمة أعظم محبوب وهو الله ﷻ، ومفاتيح محبته ﷻ كثيرة من أعظمها وأجلها: ذِكْرُهُ ﷻ، وتسبيحه آناء

الليـل وأطراف النهار، وتـلاوة كتابه، والسهر مع ذكره في الثلـث الأخير من الليل، ومناجاته في السجود وفي السَّحر. هذه من العلامات الكبرى على حب الله ﷻ.

ومن علامات الحب أنك تطيع من تحب، فيقول بعضهم:

تَعْصَى الإلَـهَ وَأَنْـتَ تُظْهِـرُ حُبَّهُ ! ... هَذَا - لَعَمْرِي - فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ

لَـوْ كَـانَ حُبُّكَ صَـادِقًا لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

فيُبتلى هذا بهذا ولكن الذين أخطؤوا في الحب أخطؤوا في مسألة حبهم ما لا يحلُّ لهم؛ لأن الحب الطبيعي في الإسلام حب الزوجة، وحب العظمة والدين لله ﷻ، وكذا مـن الحب الطبيعي حب الابنة والأخت والأم والوالد وهكذا، حب في الله ﷻ، لكن إذا صُرِف في محرم وقف الشرع مانعاً من ذلك ونهى عن ذلك، ولذلك تجد أكثر الشعراء على هذا الانحراف، مثل: جرير الذي يقول:

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ ... قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلانَا

يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حَتَّى لا حِرَاكَ بِهِ ... وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ إِنْسَانَا

وغيرهم مثل عروة بن حزام يقول:

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ ... وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِن هُمَا شَفَيَانِي

فَوَاللهِ مَا مِنْ رُقْيَةٍ يَعْلَمَانِهَا ... وَلا شَرْبَةٍ إِلاَّ بِهَا سَقَيَانِي

فَقَالا: شَفَاكَ اللهُ، وَاللهِ مَا لَنَا ... بِمكنون ما تَحْوَى الضُّلُوعِ يَدَانِ

فهم ساروا على هذا يصفون حياتهم فقط بهذه المعاني، ولم يقدموا رسالة لله.

ويقـال: إن المهندسين والعمال والمخترعيـن والمكتشفين لا يعشقون. لأنهم ليـس عندهم وقـت للفراغ والضياع؛ فهـم مشغولون بالبنـاء والتعمير والاكتشاف

والاختراع، أما الخالي فهو يقع في العشق والحب؛ الحب اللاهي؛ لأن الخالي يسمع الشعر ويداعبه الخيال وتجره الأوهام والعواطف، أما الكادح فهو مشغول أمامه أمور بالعيان، أما هذا فيشتغل بذهنه ولذلك تجد الخالي يتعب؛ فهو لا يجد عملاً فيجنح عقله ذات اليمين وذات الشمال، ولذلك يوصى الموسوس والمهموم ومن عنده قلق واضطراب نفسي أن يعمل. والصينيون عندهم حدائق العمل في مصحاتهم النفسية، فإذا جاءهم الإنسان يشكو من مرض الوهم والاضطراب أعطوه المسحاة يُعدِل الماء ويُصلح الأشجار، فما يمر عليه شهر إلا وقد تعافى، ولذلك تجد العمال والمهرة والبنائين ليس عندهم قلق ولا اضطراب، لأنهم يعملون ومشغولون بالعمل وأذهانهم منصبة على هذا العمل، فإذا انتهوا من العمل زارهم النوم فاستقبلوه بنفس مرتاحة طيبة رضية.

إذا عُلِمَ هذا فإن علينا أن ندرس معاني الحب التي في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، إذ يقول ﷺ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاَّ لله، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**». وفي حديث قدسي في البخاري يقول ﷻ: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِأَحَبَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ**»... الحديث. فدل على أن الله يحب أولياءه، وأولياؤه يُحبونه إذا حققوا الولاية، كل بحسبه؛ لأنه قد يجتمع في الإنسان مع أسباب الحب أسباب البغض.

نعود إلى المحبة، يقول أحد الأندلسيين من الشعراء، كما ذكر ابن رشيق:

شَكَا أَلَمَ الْفِرَاقِ النَّاسُ قَبْلِي ... وَرُوِّعَ بِالنَّوَى حَيٌّ وَمَيْتُ

وَأَمَّا مِثْلَ مَا ضَمَّتْ ضُلُوعِي ... فَإِنِّي مَا سَمِعْتُ وَلا رَأَيْتُ

فكلٌّ يشكو تباريحه، حتى إن المحدِّث الأديب العالمي المفتي الأندلسي ابن حزم الظاهري ألَّف طوق الحمامة في هذه المعاني وجاء بالهجر والوصل والقطيعة والتعزز والمراسلة ومسألة الرقيب والعذل، ونحو ذلك.

obeikandl.com

الجليس الصالح

الجليس الصالح مُنْيَةُ من يتمنى، وهو مطلب لكن يعَزُّ وجوده برغم كثرة من يجلس مع الإنسان، إذ يجعلون شروطاً في الجليس الصالح: أن يكون ظاهره وباطنه سواء، وأن يكون وافياً لك في الغيب والمشهد، وألا يؤذيك في الجلوس. حتى يقول ابن عباس، وهو من خيرة كلامه: «**وَاللهِ مَا أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْ جَلِيسِي، وَلَوِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُنَفِّرَ الذُّبَابَ عَنْهُ لَفَعَلْتُ**». وقالوا: إن عمرو بن العاص رضي الله عنه من وفائه وأصالته كان يُكرم جليسه إكراماً عظيماً، وقال: «**رَجُلٌ تَخَطَّى النَّاسَ إِلَيَّ**

وَجَلَسَ فِي مَجْلِسِي أَلا يَكُونُ أَعَزَّ النَّاسِ عَلَيَّ». فهم يتبارون في خدمة الجليس الصالح؛ لأن الجالس الصالح هبة من الله يعينك على طاعة الله ويقربك من معالي الأمور، ويحفظك من مجلسك وإذا رآك أخطأت واغتبت ردَّكَ بلُطف، تجد عنده من الفائدة ومن الرأي السديد ما الله به عليم.

فهذا المسعر بن كدام أحد المحدثين الأولياء وكان عنده جلاس، يقول: اشترط عليهم ثلاثاً: ألا ينقلوا خبراً عن إنسان، وألا يغتابوا أحداً، ولا يكذبوا.

فيقول ابن المبارك:

مَنْ كَانَ مُلْتَمِساً جَلِيساً صَالِحاً ... فَلْيَأْتِ حَلْقَةَ مِسْعَرِ بْنِ كِدَامِ

فِيهَا الْمَوَدَّةُ وَالْكَمَالُ وَأَهْلُهَا ... أَهْلُ الْوَقَارِ وَخَيْرَةُ الأَقْوَامِ

يقول: إن كنت تريد جليساً صالحاً يساعدك على طاعة الله والمعرفة، وتستفيد علماً نافعاً فهلمّ إلى حلقة مسعر بن كدام تجد فيها ما يسرك. وابن المبارك له بعض الحكم، فيقول:

أَيُّهَا الطَّالِبُ عِلْمَاً ... ائْتِ حَمَّادَ بْنَ زَيْدِ

حماد بن زيد محدث كبير من درجة الإمام مالك بن أنس، اسمه حماد بن زيد بن درهم، وآخر اسمه حماد بن سلمة بن دينار، فقيل لأحد العلماء: أيهما أفضل؟. قال: كما بينهما في الصرف؛ لأن الدينار بعشرة دراهم، ذاك حماد بن سلمة بن دينار أفضل في العبادة والولاية، وإلا فحماد بن زيد أوثق منه في الحديث والرواية، وكلاهما عالمان جليلان كبيران، فيقول ابن المبارك:

أَيُّهَا الطَّالِبُ عِلْمَاً ... ائْتِ حَمَّادَ بْنَ زَيْدِ

فَاسْتَفِدْ عِلْمَاً كَثِيرَاً ... ثُمَّ قَيِّدْهُ بِقَيْدِ

وَاتْرُكُوا الْبِدْعَةَ مِنْ ... آثَارِ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدِ

عمرو بن عبيد معتزلي له آراء مخالفة للحق وللكتاب والسنة.

فيقول: إذا بحثت عن إنسان، فابحث عن إنسان تستفيد منه، وينفعك ويدلك على الخير وعلى معالي الأمور. وأبو تمام يصف أحداً، يقولون: يصف المعتصم، والله أعلم. فيقول:

وتراه يصغي للحديث بقلبه وَبِسَمْعِهِ وَلَعَلَّهُ أَدْرَى بِهِ

يقول: من حسن جلوسه مع الناس أنه يصغي للقصة وربما سمعها. فبعض الناس لطيف تقص عليه القصة وقد سمعها عشرين مرة فيقول: ما شاء الله! عَجَبٌ. وهو عارف بها لكن من حسن أخلاقه. وبعضهم إذا بدأت بالقصة يقطع عليك الحديث ويقول: سمعنا به أكثر من مرة، أو من ثلاثين مرةً. وإذا حدثته بقصة قال: أعرفها. وإذا قلت له بيتاً قال: حفظته وأنا في الابتدائية. فلا يتركك تشارك أبداً ويستولي على المجلس، فهو يخبرك؛ قال وخرج ودخل وقام وقعد وقرأ ونشر وكتب، أخبار فقط وهذا يُسمى الثقيل، حتى يقول الشافعي إذا رأى ثقيلاً: ربنا اكشف عنا العذاب إنا موقنون. وقال الشافعي: والله إن المجلس يمج الثقيل؛ لأن الأرض تميل في جهته.

ويقولون: إن ابن تيمية كان إذا رأى ثقيلاً قال: هذه حمى الربع. وحمى الربع حمى تأخذ ربع الجسم.

وقيل لابن المبارك: من هم الثقلاء؟. قال: المبتدعة. وقيل لأحدهم: من هم الثقلاء؟. قال: السفلة الذين يأكلون الدنيا بالدين. وغير ذلك، حتى يقول أحد الشعراء:

مَنْ لِي بِإِنْسَانٍ إِذَا أَغْضَبْتَهُ كَانَ الْحِلْمُ رَدَّ جَوَابِهِ

يقصد بالإنسان: الجليس. لأن بعض الناس آتاه الله عز وجل خلقاً؛ إن يصدر عنك يغفر الزلة، أي: يتغافل ويتغابى، كأنه ما سمع شيئاً. حتى يقول أبو تمام:

لَيْسَ الْغَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ ... لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَغَابِي

فليس الغبي السيد، بل المتغاضي هو الذكي، التغافل عن هفوات الجليس هو من أحسن ما يكون، ولذلك تجد العقلاء والوجهاء والدهاة الذين أكل عليهم الدهر وشرب يسمع أحدهم بعض الكلام ويسكت كأنه ما بلغه شيء ويدفن الموضوع، فيقول: ما حصل بأس، وكل شيء على ما يُرام. تمشي الأمور فيكسب العفو والحب والصفح والله يؤيده ﷻ، أما من يحاسب كل الناس على كل حال، فلا يبقى له صديق، يقول أحدهم لصديقه:

كَأَنَّكَ فِي الْكِتَابِ وَجَدْتَ لاءً ... مُحَرَّمَةً عَلَيْكَ فَلا تَحِلُّ

يقول: ما تقول: لا. إلا في لا إله إلا الله. يعني هذا من كرمه.

إِذَا حَلَّ الشِّتَاءُ فَأَنْتَ شَمْسٌ ... وَإِن حَلَّ الْمَصِيفُ فَأَنْتَ ظِلُّ

يقول: أنت في الشتاء مثل الشمس بدفئها علينا، وفي الصيف مثل الظل نستظل به. فبعض الأصدقاء هكذا، فبعضهم إذا دخلت عليه سلالًك من الهموم وخفف عنك، وإذا ذكرت له مشكلة قال: لا عليك، إن مع العسر يسراً، ماذا تطلب؟ أنا معك أذهب معك سوية وعرضي دون عرضك وجاهي جاهك، والأمور يسيرة وأنا وجدت لك حلاً. وبعضهم إذا حضرت قال: حسبي الله، يا أخي، من ورطة إلى ورطة، هذه مشكلة ما لها حل ولا لها ربط. فيزيدك هماً إلى هم وغماً إلى غم، ومثل هذا ينبغي ألا يُخالط.

يقول زهير بن أبي سلمى في جلساء آل هرم بن سنان وكانوا يجلسون في مجالسهم ولا ينطقون بالفحشاء ولا بالعوراء:

قَوْمٌ أَبُوهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْدُبُهُمْ ... طَابُوا وَطَابَ مِنَ الأَوْلادِ مَا وَلَدُوا

لَوْ كَانَ يُقْعَدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ ... قَوْمٌ بِآبَائِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

مُحَسَّنُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ ... لا يَنْزَعُ اللهُ مِنْهُم مَا لَهُ حُسِدُوا

ويمدحهم في مجلس آخر، يقول: ما أحسن مجالسهم! بسمة ورضا وتآمر بالمعروف وكرم، ولا يغتابون أحداً. قال كعب في آل هرم بن سنان:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا القَولُ وَالفِعْلُ

عَلى مُكثِريهِم رِزقُ مَن يَعتَريهِمُ ... وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ

قال: أغنياؤهم يعفون وفقراؤهم يُضيِّفون، ولا فقير فيهم، فالفقير يدخل عند الغني والجائع يدخل عند الكريم. كلهم متشاركون فيما أعطاهم الله ﷻ متعاونون متكاتفون، حتى يقول ﷺ في الأشعريين الذين منهم أبو موسى الأشعري رضي الله عنه لما وفدوا من اليمن ورآهم النبي ﷺ: «**نِعْمَ الْوَافِدُونَ؛ إِذَا أَرْمَلُوا جَمَعُوا طَعَامَهُمْ فَأَكَلُوا سَوِيَّةً**». أو كما قال ﷺ: «**وَإِنِّي لَأَعْرِفُ مَسَاكِنَ الْأَشْعَرِيِّينَ بِاللَّيْلِ وَأَنَا لَمْ أَرَهَا بِالنَّهَارِ**»؛ من دويهم بالقرآن بالليل ومنهم أبو موسى رضي الله عنه الذي مر به ﷺ في المسجد وإذا هو يقرأ وما علم أن الرسول ﷺ في طرف المسجد، وإذا بأبي موسى الأشعري رضي الله عنه أُوتِي مزماراً من مزامير آل داود؛ يُوقِف الإنسان إذا مشى.

يقول أحد الصحابة: سمعت أبا موسى يُصلي المغرب فوالله الذي لا إله إلا هو ما سمعت ناياً ولا عوداً ولا وتراً أجمل من صوته. فمر ﷺ عند المسجد وإذا بأبي موسى رضي الله عنه يقرأ وما علم أبو موسى رضي الله عنه، فوقف النبي ﷺ يسمع أبا موسى يرسل صوته وأخذ رسول الله ﷺ يرسِلُ دموعه، وفي الصباح لقيه ﷺ قال: «**لَوْ رَأَيْتَنِي يَا أَبَا مُوسَى وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ** -وهو أُنْزِلَ عليه القرآن ﷺ- **قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَإِنَّكَ كُنْتَ تَسْتَمِعُ لِي؟!. قَالَ: كُنْتُ أَسْتَمِعُ لَكَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ. قَالَ: وَاللهِ - يَا رَسُولَ اللهِ - لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ لِي لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا**». فيقول: ليتني كنت أعلم بك لكنت رجَّعته وحسَّنته وجوَّدته ورفعت وخفضت في هذا الكتاب، لكنني ما كنت أعلم.

نعود إلى آل هرم بن سنان، يقول:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٍ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا النُّبْلُ وَالْفَضْلُ

عَلى مُكثريهم رِزقُ مَن يَعتَريهمُ ... وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ

وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِّي إِلاَّ وَشِيجُه ... وَتُغْرَسُ إِلاَّ فِي مَغَارِسِها النَّخْلُ؟

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... وَأَبْلاَهُمُ خَيْرَ الْبَلاءِ الَّذِي يَبْلُو

فوصفهم بأن عليهم الرضا والسكينة، أي: على وجوههم فإذا أتيتهم رحبوا. أحياناً فلُّ الحجاج وانبساط الوجه وبسمة الفم أحسن من الضيافة، ماذا تريد من إنسان يضيفك وهو مُقَطِّبُ الجبين، ويصيح على أبنائه؟! ليس الطعام كل شيء، لكن الإنسان الذي يرحب ويحيي ويسألك عن الأخبار والأمطار والعيال والأولاد، فتجده كأنه يهدي لك الحياة، حتى يقول أحدهم:

أُحَادِثُ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ ... وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَكَانُ جَدِيبُ

فتجده إذا جاء الضيف يقول: يا حياك الله أهلاً وسهلاً، بارك الله فيكم، تفضلتم علينا بهذه الزيارة. هذا هو المؤمن الكريم وتجده يتحدث معه ويؤانسه، حتى إنهم يقولون: إن أحد الكرماء كان يسهر مع ضيوفه. حتى يقول فيه أحد الشعراء:

مُتَيَّمٌ بِالنَّدَا لَوْ قَالَ وَافِدُهُ: ... هَبْ لِي-فُدِيتَ-كَرَى عَيْنَيْكَ لَمْ يَنَمِ

يقول: هو عاشق للندى ومصاب بمسألة الكرم والسخاء. والوافد: هو الضيف. فلو قال له الضيف: أعطني النوم الذي في عينيك. لقال: تفضل، خذ النوم. فهو يكرمه ويسهر معه ويؤانسه ويكون معه في وقته كله، حتى يرتحل عنه الضيف، هذا هو الجليس الصالح.

حسان رضي الله عنه لما ذهب عند آل جفنة بن مارية من الغساسنة مدحهم وتأثر بمجالسهم، حتى بعد الإسلام حن إلى تلك المجالس من الوفاء، وقد كانوا في دمشق من ملوك غسان، فقال فيهم:

لله دَرُّ عُصَابَةٍ صَاحَبْتُهُمْ ... يَوْمَاً بِجَلَّقَ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ

أَوْلادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمُ ... قَبْرِ ابْنِ مَارِيَّةَ الْكَرِيمُ الْمُفْضِل

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلابُهُمْ ... لا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

يقول: في مجالسهم هذا ينزل وهذا يطلع وهذا يُرَحِّب ويدخل، وهذا يدخل وهذا يمشي، مفتوحة الأبواب، حتى إن الكلاب تعبت عند الباب من النبح. بسبب كثرة الوافدين، فسكتت لأنها أنست بالناس، وإذا أقبل الإنسان من هناك لا يقولون: مَنْ؟. فلا تحقيق عند الباب؛ لأن بعض الناس يضع رصداً عند بابه ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨]. أولاده وعنده حارس عند الباب يقول لكل من يأتي: لماذا أتيت في هذا الوقت؟ وماذا تريد من الوالد؟ أعطنا اسمك ورقمك، ثم فيما بعد نتصل بك. أما بعضهم فمشرع الأبواب، حتى يقول في مثل هذا ابن شلاح:

امل الدوجار وخل الباب مفتوح ... خوف المسير يستحي ما ينادي

يا نمر ما في صكة الباب مصلوح ... ولا خير فيها يا مظنة فؤادي

تصلح الرجال اللي يبي يشتري الروح ... والا فعليه ولا يعتمدها اعتمادي

رجال تقصيره مع الناس مسموح ... لاجل إن ماله في القديمة شدادِ

ما سبق له أن ضيَّف ولا ضيَّفَ أبوه ولا ضَيَّف جده فهو معذور، حتى لو قصر قالوا: معذور. أي: يسامحونه. لكن الرجل الشهم الْمُجَرَّب في المواقف، فيقولون: أنت فلان وتفعل هذا؟!

كان عمر ﷺ يخطب على المنبر يوم الجمعة وهو خليفة وأمير المؤمنين وفي أثناء ما يخطب وإذا بعثمان بن عفان ﷺ وهو من العشرة المبشرين بالجنة وثالث الخلفاء الراشدين، يأتي في وقت الخطبة ويدخل المسجد وهو واقف، فقطع عمر الخطبة والناس جلوس وعلماء الصحابة ﷺ شهداء الصحابة كبار الصحابة، فقال عمر لعثمان: «**أَتَأْتِي فِي هَذَا الْوَقْتِ؟!!. فَقَالَ عُثْمَانُ ﷺ: وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ الْجُمُعَةُ إِلاَّ الآنَ فَتَوَضَّأْتُ فَأَتَيْتُ. قَالَ عُمَرُ ﷺ: وَالْوُضُوءُ أَيْضاً؟! وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَأْمُرُنَا. فَصَلى**». فدل على أن الغسل مُستحب وليس واجباً؛ لأنه لو كان واجباً لعاب على عثمان ﷺ تركه، وهذا في قول الجمهور، الشاهد أنه يصعب على الناس إذا كان الرجل ذا مكانة، ثم رأوه قصَّر في الواجب قالوا: كيف تفعل وأنت كذا؟!. مثل الطالب المجد الممتاز المجد في الفصل إذا نام أو لم يحل الواجب تقول: سبحان الله! أنت تفعل كذا؟!. أما البليد الكسول فتقول: له سوابق فلا يؤخذ عليه مثل ما يؤخذ على الثاني.

لكن أحسن جليس هو الكتاب، وكما يقول أبو الطيب المتنبي:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ

أي: ظهر الفرس. لأن فيه المجد والشرف والسؤدد.

وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

وكان السلف والأخيار يجلسون مع الكتاب، وكان ابن المبارك له كتب يضعها عن اليمين وعن الشمال كتب الحديث والفقه والتفسير، ويقول أحدهم في الكتب:

لَنَا جُلَسَاءُ لا نَمَلُّ حَدِيثَهُمْ أَلِبَّاءُ مَأْمُونُونَ غَيْباً وَمَشْهَدَا

فإنهم وهم حضور نحبهم وهم غياب نأمنهم على أسرارنا، ولا يغتابون وهي الكتب، تدخل مكتبتك وتقرأ ما شئت وتطلب الكتاب ولا يغتابك ولا يؤذيك ولا ينقل عنك سراً لا يتعرض لك ولا يثقل عليك، ولكن من يعرف هذه الأمور؟!

جلس أحد الشعراء مع أصدقائه، فانشرحوا في المجلس، قالوا: صف لنا هذا المكان. قال:

وَلَمَّا جَلَسْنَا مَجْلِسَاً طَلَّهُ النَّدَى ... جَمِيلاً وَبُسْتَانَاً مِنَ الرَّوْضِ نَادِيَا

أَثَارَ لَنَا طِيبُ الْحَدِيثِ وَحُسْنُهُ ... مُنَىً فَتَمَنَّيْنَا فَكُنْتَ الْأَمَانِيَا

يقول: تمنينا ونحن جلوس، فكُنْتَ أنت الأمنية، تمنينا لو أنك معنا.

ولذلك قال عمر للصحابة ﷺ وهم جلوس وأبو عبيدة رضي الله عنه في الشام يُقاتل ويجاهد مع الجيوش ويفتح الدنيا بلا إله إلا الله، قال: «**تَمَنَّوْا**». فتمنى أحدهم الشهادة في سبيل الله، والثاني العفو والعافية، والثالث العلم النافع، والرابع الذرية الطيبة، فقال عمر رضي الله عنه: «**لَكِنِّي أَتَمَنَّى مِلْءَ هَذِهِ الْغُرْفَةِ رِجَالاً مِثْلَ أَبِي عُبَيْدَةَ عَامِرِ بْنِ الْجَرَّاحِ**». فقط أن تمتلئ هذه الغرفة بأمثال أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه.

ولما ذهب عمر يفتح بيت المقدس لقيه أبو عبيدة مع الجيوش فسلم عليه، ولما أتى الليل قال أبو عبيدة رضي الله عنه: «**تَعَالَ يَا عُمَرُ، نَتَبَاكَى أَنَا وَأَنْتَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِي جَنْبِ اللهِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ**». وهم كانوا أوفياء ﷺ.

obeikandl.com

الحكمة

الحكمة وكيف نطق الشعراء والأدباء بالحكمة ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وهي السداد في القول والعمل، وإذا ذكرت في القرآن فهي السنة، ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤]. أي: السنة. لكن إذا أُطلقت فالمقصود بها السداد والصواب والاستقامة في كل الأمور، قال ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً». فالشاعر ينطق بالحكمة.

ولذلك تبارى الشعراء في أن يسطر كل واحد منهم تجاربه في بيت أو بيتين، حتى إن أحدهم يختصر حياة عشرين سنة أو ثلاثين سنة في بيت، فإذا فهمت هذا البيت وطبقته في حياتك استغنيت عن مجلدات من التجارب ولم تحتج إلى أن تعيش التجربة نفسها، يقول أحد الشعراء:

وَمَنْ كَمُلَتْ فِيهِ النُّهَى لا يَسُرُّهُ ... نَعِيمٌ وَلا يَرْتَاعُ لِلْحَدَثَانِ

هذه حكمة وهذا البيت من أحسن ما يكون، يقول: إن الإنسان العاقل إذا كمل عقله ونضج ما عاد يفرح بإقبال الدنيا، ولا يأسى على إدبارها ومصائبها، إذ انتهى إلى قناعة بأنا زائرون مُنْتَهُون مرتحلون، وأن السعادة في جوار رب العالمين عز وجل. ولذلك على هذه القصيدة - لما أعجبني هذا البيت - نظمت:

سَلا الْقَلْبُ عَنْ غِيْدٍ صَفَتْ وَحِسَانِ ... وَأَهْمَلَ ذِكْرَ الْمُنْحَنَى وَعُمَانِ

وَمَا عَادَ يُلْهِينَا الصَّبَا بِأَرِيجِهِ ... وَلَوْ فَاحَ بِالرَّيْحَانِ وَالنَّفَلانِ

وَخَطَّ بِرَأْسِي الشَّيْبُ لَوْحَةَ عَاشِقٍ ... يَقُولُ: احْذَرُونِي أَيُّهَا الثَّقَلانِ

شَرِبْنَا لَيَالِي الصَّفْوِ فِي كَأْسِ غَفْلَةٍ ... وَجَاوَزْتُ بَعْدَ الأَرْبَعِينَ ثَمَانِي

فَمَرَّتْ كَأَحْلامِ الرَّبِيعِ سَرِيعَةً ... فَأَيَّامُهَا فِي نَاظِرَيَّ ثَوَانِ

فَلَوْ أَنَّنِي أُرْمَى بِقَوْسِ دَفَعْتُهُ ... بِحِدَّةِ قَلْبٍ وَاحْتِدَامِ جَنَانِي

وَلَكِنَّ قَوْسَ الْعُمْرِ يُمْكِنُ أَسْهُمَاً ... وَمَا لِلْفَتَى فِي رَدِّهِنَّ يَدَانِ

وَفِي أَرْبَعِينَ الْعُمْرِ وَعْظٌ وَعِبْرَةٌ ... وَيَكْفِيكَ عِلْمَاً شَاهِدُ الرَّجَفَانِ

فَلا تُسْمِعَنِّي وَعْظَ قُسٍّ وَلا تَسُقْ ... عَلَيَّ مَقَامَاتِ الْفَتَى الْهَمَذَانِي

فَعِنْدِي مِنَ الأَيَّامِ أَبْلَغُ عِبْرَةً ... عَلَى مِنْبَرٍ تُلْقَى بِكُلِّ لِسَانِي

وَلَمَّا اتَّخَذْتُ الْعِلْمَ خِدْنَاً وَصَاحِباً ... تَرَكْتُ الْهَوَى وَالْمَالَ يَنْتَحِبَانِ

جَعَلْتُ الْقَوَافِي الصَّافِنَاتِ مَرَاكِبِي ... كَأَنَّ الضُّحَى وَاللَّيْلَ قَدْ حَسَدَانِي

فلا تُـرِكَ الـدُّنْـيَـا بِـلَـهْـوٍ فَـإِنَّـهُ ... يُـعَـاقُ مَـسِـيـرُ الشَّمْسِ بِـالـدَّبَـرَانِ
فَقَدْ هَدَّ قِدْمَاً عَرْشَ بَلْقَيْسَ هُدْهُدٌ ... وَخَـرَّبَ فَـارٌ مَـا بَـنَـى الْـيَـمَـنَـانِ
وَجَـدِّي أُوَيْـسُ الأَزْدِ أَفْضَـلُ تَـابِـعٍ ... عَلَى صِدْقِ قَوْلِي يَشْهَدُ الْقَمَرَانِ
فَلاتَحْسَبِ الأَنْسَابَ تُنْجِيكَ مِنْ لَظَى ... وَلَـوْ كُـنْـتَ مِـنْ قَيْسٍ وَعَبْـدِ مَـدَانِ
أَبُو لَهَبٍ فِي النَّارِ وَهْوَ ابْنُ هَاشِمٍ ... وَسَلْمَانُ فِي الْفِرْدَوْسِ مِنْ خُرَسَانِ

وعلى هذا البحر للمتنبي قصيدة من أروع قصائده، يقول الواحدي الذي شرح ديوانه: هذا والله هو المدح، ما مُدِحَ ملك بمثل هذا المدح. مدح بها كافورًا يقول:

عَـدُوُّكَ مَـذْمُـومٌ بِـكُـلِّ لِـسَـانِ ... وَلَـوْ كَـانَ مِـنْ أَعْـدَائِـكَ الْـقَـمَـرَانِ
وَلِلّه سِـرٌّ فِـي عُـلاكَ وَإِنَّـمَـا ... كَلامُ الْوَرَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذَيَانِ
بِرَغْمِ شَبِيبٍ فَارَقَ السَّيْفُ كَفَّهُ ... وَكَادَا عَلَى الْعِلاَّتِ يَصْطَحِبَانِ

لأن شبيباً قاتل كافورًا، ثم سقط، إذ أُغمِي عليه، فوقع السيف منه، فقُتِل.

كَـأَنَّ رِقَـابَ النَّاسِ قَـالَـتْ لِسَيْفِهِ ... رَفِـيـقُـكَ قَـيْـسِـيٌّ وَأَنْـتَ يَـمَـانِـي

لأن شبيباً قيسي والسيف يماني.

قَـضَـى اللهُ يَـا كَـافُـورُ أَنَّـكَ أَوَّلٌ ... وَلَـيْـسَ بِـقَـاضٍ أَنْ يُـرَى لَـكَ ثَـانِ

إلى آخرها، والقصائد هذه من أجمل ما يكون.

يقولون: إن الأعور السلمي ضاع له ابن وهو ابن وحيد، فبكى وبكى، حتى بكى بعينه الثانية، كان بعين واحدة وعينه الثانية العمياء بكى بها، فقال:

بَكَيْتُ بِعَيْنٍ لَيْسَ فِيهَا غَضَاضَةٌ ... وَعَيْنٌ بِهَا رَيْبٌ مِنَ الْحَدَثَانِ

يقول: حتى الثانية بكت معها.

عَذِيرُكِ يَا عَيْنِي الصَّحِيحَةُ، والْبُكَا فَمَالَكِ يا عَوْرَاءُ وَالْهَمَلانِ

شاركت فيه من شدة المصاب.

والحطيئة سجل بيتاً في التاريخ يُعد من الشوارد، يقول - لما هجا الزبرقان -:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ لا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ

ثوابك عند الله ﷻ سواء كافأك الناس أو لا. كن أنت البار وكن أنت المحسن، لا تُسئ أبداً، فإن الله سوف يثيبك إذا لم حفظ جميلك أحد.

فكَانَ ﷺ إذَا جاءه الْخَبَرُ قَالَ:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

يقول: سوف تُظهر لك الليالي، وسوف تبين لك علومًا، وسوف يأتيك أناس بأخبار وأنت ما طلبت منهم هذه الأخبار، لكن هكذا شيمة الأيام.

ومن أحسن القصائد وأشهرها قصيدة أبي تمام، يوم هنأ المعتصم بفتح عمورية، قال:

فَتْحٌ تَفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ وَتَبْرُزُ الأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا الْقُشُبِ

يقول أبو تمام: إن نصرك هذا تُفتح له أبواب السماء. وذلك لما ضُرِبَت امرأة في عمورية، وقالت: وامعتصماه! وأقسم بالله لينصرنها وسار بالجيش فقال له المنجمون: لا تذهب؛ لأن البرج في العقرب، والعقرب إذا قاتل فيه الإنسان ينهزم. قال: آمنت بالله وكفرت بعلم نجومكم هذا. فهزئ أبو تمام بالمنجمين، وقال:

أَيْنَ الرِّوَايَةُ بل أَيْنَ النُّجُومُ؟! كَمْ صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ

يَقْضُونَ بِالأَمْرِ عَنْهَا وَهْيَ غَائِبَةٌ مَا كَانَ مُنْقَلِباً أَوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ

لَوْ بَيَّنَتْ قَطُّ أَمْرَاً قَبْلَ مَوْقِعِهِ لَمْ تُخْفِ مَا حَلَّ بِالأَصْلابِ وَالنُّصُبِ

فَالنَّصْرُ فِي شُهُبِ الأَرْمَاحِ لامِعَةً ... بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

خَلِيفَةَ اللهِ، جَازَى اللهُ سَعْيَكَ عن ... جَرْثُومَةِ الدِّينِ وَالأَخْلاقِ وَالنَّسَبِ

بَصُرتَ بِالرَاحَةِ الكُبرى فَلَم تَرَها ... تُنَالُ إِلاَّ عَلى جِسرٍ مِنَ التَعَبِ

إِن كانَ بَينَ صُروفِ الدَهرِ مِن رَحِمٍ ... مَوصولَةٍ أَو ذِمامٍ غَيرِ مُنقَضِبِ

فَبَينَ أَيّامِكَ اللاتي نُصِرتَ بِها ... وَبَينَ أَيّامِ بَدرٍ أَقرَبُ النَسَبِ

إلى أن يقول:

تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللهِ مُنْتَقِمٍ ... للهِ مُرتَقِبٍ فِي اللهِ مُرتَغِبِ

وهي سبعون بيتاً أعطاه على كل بيت ألف دينار، مبلغ ضخم يستحقه، وأولها قوله- وهذه الحكمة التي قصدت أن أصل إليها -:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ ... فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

وعارضه وسايره عبد الله البردوني شاعر اليمن الكبير المعاصر، يقول:

ما أَصْدَقَ السَّيْفَ! إِنْ لَمْ يَحْضُرِ الْكَذِبُ ... وَأَكْذَبَ السَّيْفَ إِنْ لَمْ يَصْدُقِ الْغَضَبُ

بِيضُ الصَّفَائِحِ أَهْدَى حِينَ تَطْلُبُهَا ... أَيْدٍ إِذَا غَلَبَتْ يَغْدُو بِهَ الْغَلَبُ

وَأَقْبَحَ النَّصْرَ نَصْرَ الأَغْبِيَاءِ بِلا ... فهمٍ سوَى فهمِ كَمْ بَاعُوا وَكَمْ كَسِبُوا

مَهْلاً - هُدِيتَ - أَبَا تَمَّامَ تَسْأَلُنِي ... كَيْفَ احْتَفَتْ بِالْعِيدِ حَيْفَاءُ وَالنَّقَبُ

أي: إسرائيل، التي جاءت عندنا لماذا غلبتنا؟

نَادَيْتَ فِي الْجَيْشِ عَمُّورِيَّةٌ اتَّقَدَتْ ... مَاذِي النُّجُومُ فَنحنُ السَّبْعَةُ الشُّهُبُ

حضرت الجيوش وقال: لا نجوم، هذا كلام فارغ، نحن السبعة الشهب، أي: جنود المعتصم. إلى آخر ما قال، فالشاهد قول أبي تمام:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ ... فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

الكتاب له دور والقلم له دور والسيف له دور، حتى يقول أبو الطيب المتنبي:

مَنِ اقْتَضَى بِسِوَى الْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلٍ بِلَمِ

يقصد السيف.

تَوَهَّمَ القَومُ أَنَّ العَجْزَ قَرَّبَنا وَفي التَقَرُّبِ ما يَدعُو إِلى التُهَمِ

يقول: من يحاول المجد يريد الملك والسؤدد بغير الهندي؛ السيف الأبيض أجاب كل سؤال عن: هل. قائلاً: لم، لم. ولذا يقول:

لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ

في أبيات له، فهنا جاء بهذه الحكمة.

ومن الحكمة قول زهير في ميميته المشهورة وهي المعلقة:

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

وهذا خطأ، بل لا يجوز الظلم ولا العدوان على الناس، لكنه مبدأ الجاهلية، يقول: عليك أن تبدأ الناس بالظلم؛ كي لا يظلموك ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]. لكن صحيح أن من لم يذد عن حوضه يهدّم، مع أن الأولى ألا تظلِمُوا ولا تُظلموا؛ فلا ضرر ولا ضرار، لا تعتدِ ولا تترك أحداً يعتدِي عليك، ومن اعتدى عليك فجزاء سيئة سيئةٌ مثلها، ومن عفى فأجره على الله.

ويستمر في هذا إلى أن يأتي ابن دريد، فيقول:

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثاً حَسَناً لِمَنْ وَعَى

يقول: أصل الإنسان ذكرى جميلة بعدما يموت، فسجل لك تاريخاً طيباً، فلا تعادِ الناس ولا تؤذِهم، لا تكن مصدر تعاسة لأحد، ولا تتسبب في إزعاج أحد، كن

محبوباً إذا مُت يبكي عليك الجيران والخلان، سجل لك صفحات ناصعة من البر ومن فعل الخير، زُرْ مسكيناً وواسِ منكوباً، وقف مع الأرملة وواسِ محروماً؛ كي تسجل لك أفعالاً حسنة.

ونعود للمتنبي صاحب الحكم؛ فله خمس مئة بيت تدور على ألسنة الناس في الحكمة، يقول:

وَمِنَ الْعَدَاوَةِ مَا يَنَالُكَ نَفْعُهُ ... وَمِنَ الصَّدَاقَةِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْلِمُ

بعض الأعداء يجعلك أحياناً تتحفز وتهتم ويتسبب في بروزك ومكانتك، ويجعل لك عطاء فتهتم بنفسك واسمك، وتعرف عيوبك ويكشف لك أخطاءك، ويدلك على زللك؛ لأنه ينافسك ويحسدك، وبعض الأصدقاء مصدر شقاوة لك، فبعض الأصدقاء أحياناً يجر لك الويلات، فتجده أعرف الناس بأسرارك، حتى يقول أحدهم:

احْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً ... وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّهْ

فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ ... فَكَانَ أَوْلَى بِالْمَضَرَّهْ

فتجد الصديق إذا انقلب عليك صار ناراً حارقة؛ لأنه كشف تاريخك وعرف سجلك كله، صرت أمامه مكشوفاً، ثم نعوذ بالله من الصديق إذا انقلب عدواً، فإنه النار المحرقة، فانظر الحكمة.

ويقول المتنبي عن الزمان:

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا ... وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا

وَتَوَلَّوا بِغُصَّةٍ كُلُّهُم مِنْـ ... ـهُ وَإِن سَرَّ بَعضَهُم أَحيانا

رُبَّمَا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لَيَاليه ... وَلَكِنْ تُكَدِّرُ الإِحْسَانَا

أبيات جميلة بلا شك، فيقول: إن الناس عانوا من الليالي مثلما عانينا ومروا بمثلما مرّ بنا، وتغيرت بهم الأحوال، وأحياناً تأتيك مسرات، لكن فيها كدراً وفيها مزعجات.

كُلَّمَا أَنْبَتَ الزَّمَانُ قَنَاةً ... رَكَّبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاةِ سِنَانَا

يقول: تجد الآن في الغابات أشجاراً للنماء وللخضرة وللبركة وللجمال، ثم يأتي إنسان ويقطعها ويركب فيها رمحاً ويأخذ منها شجراً ويركبها مقبضاً للسيف؛ لكي يطعن بها الناس ويقتل بها البشر. فالإنسان يُخرِّب الطبيعة - في الغالب - إذا كان شريراً، يحول الخيرات إلى مواد سامة وقاتلة ومواد عدائية للبشر، ولا يريد الإصلاح، يقول ﷻ: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة: ٢٠٥-٢٠٦].

والمتنبي يقول لسيف الدولة:

وَإِنْ تَفُقِ الأَنَامُ وَأَنْتَ مِنْهُم ... فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

يقول: نعلم إنك من آدم وحواء، ولكن أنت أجود منهم- وهذه مبالغة- مثلما أن دم الغزال منه المسك.

ويقول- وهو من أجمل أبياته-:

لَوْلا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الْجُودُ يُفْقِرُ والإِقْدَامُ قَتَّالُ

يقول: لو كانت الأمور سهلة لكان كل الناس أجاويد وكلهم شجعان، ولكن الجود يفقر فالجواد والسخي إنما فعل ذلك مغامرة منه، وإلا فليس سهلاً دفع المال، وكذا الشجاعة، فالشجاع فعل ذلك مغامرة منه وإلا فليس سهلاً بذل الأنفس، لأن قبلها يقول:

لا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إلاَّ سَيِّدٌ فَطِنٌ لِمَا يَشُقُّ عَلَى السَّادَاتِ فَعَّالُ

وهو يقول في أول الأبيات وذاك من أجملها:

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلا مَالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إذْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ

إلى أن يقول:

اسْتَوْجَبَ الْحَمْدَ حَتَّى ما لِمُفْتَخِرٍ فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلا مِيمٌ وَلا دَالُ

يقول: هذا الزعيم استوجب الأفعال الجميلة والأخلاق الجليلة والمدائح النبيلة؛ لأنه ينفق ماله، والمال إذا أنفقته خفت من الفقر. ولذلك تجد البخيل يحسب ألف حساب وتجده يُعدد دراهمه، يقولون: كان عند بخيل كيس، وكان يُخرج الدراهم قبل النوم فيقبلها ذات اليمين وذات الشمال، ويقول للدرهم: طبت حياً وطبت ميتاً، والله ما تخرج من هذا الكيس إلا إلى القبر. ثم يعيده.

ولذلك فالله ﷻ ذم البخيل أمية بن خلف: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ١ - ٤]. كان ذاك الحسيس الخاسر الذي حارب الدعوة يعدّد دراهمه، فخلّدها، ومات مذمومًا، فذلك المتنبي يقول:

لَوْلا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ الْجُودُ يُفْقِرُ والإقْدَامُ قَتَّالُ

obeikandl.com

المجد

المجد الذي يتغنى به الشعراء والأدباء هو انتصار الأمة، وهو رفعة كلمتها وسؤددها وبقاؤها وانتصارها على سائر الأمم بالحق والعدل والعلم والمعرفة، وأعظم أمة عرفتها البشرية -بلا تحيُّزٍ عاطفي- هي أمة الإسلام، ولذلك سار الشعراء كلٌّ يذكر المجد على سبيله؛ فمنهم أبطال الاستقلال ورموز الفاتحين والمنتصرين، لكن عبَّروا بقصائد تحفظها الأجيال، ففي العراق لما طرد المحتل يقول شاعرهم:

ثَمَنُ الْمَجْدِ دَمٌ جُدْنَا بِهِ فَاسْأَلُوا كَيْفَ دَفَعْنَا الثَّمَنَا

يقول: إنهم طلبوا منا ثمناً والثمن كان الدماء، فتوكلنا على الله ودفعنا دماءنا.

والسوريون لما ضربوا الفرنسيين وطردوهم من بلادهم يوم الجلاء جاء شوقي يبارك لهم هذا الانتصار، فقال:

سَلامٌ مِنْ صَبَا بَرَدَى أَرَقُّ وَدَمْعٌ لا يُكَفْكَفُ يَا دِمَشْقُ
وَمَعْذِرَةُ الْيَرَاعَةِ وَالْقَوَافِي جَلاءُ الرُّزْءُ عَنْ وَصْفٍ يَدِقُّ
دَخَلْتُكِ وَالأَصِيلُ لَهُ ائْتِلاقٌ وَوَجْهُكِ ضَاحِكُ القَسَمَاتِ طَلْقُ

إلى أن قال:

وَلِلْحُرِّيَّةِ الْحَمْرَاءُ بَابٌ بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ
دَمُ الثُّوَّارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا وَتَعْرِفُ أَنَّهُ صِدْقٌ وَحَقُّ

فهذا دل على أنه ينبغي وجود التضحيات لرفع الدين الحق، التضحية بالعلم والجهد وبالوقت والقلم والبيان؛ لتكون الأمة ذات سؤدد، يقول الزبيري:

يَوْمٌ مِنَ النصر لَمْ تَصْنَعْ أَشِعَّتُهُ شَمْسُ الضُّحَى بَلْ صَنَعْنَاهُ بِأَيْدِينَا

وهو يعني الانتصار والمجد الذي حازوه والذي أعلنوه، فالأمة إذا كانت أمة سؤدد عرفت أنها أمة مستخلفة، وأمة رسالة في العالم، ولها كيان ولها تاريخ مشرق حرصت على تربية أبنائها على المثل العليا، وعلى أن رموزها وأعظمها محمد ﷺ أقدس القداسات، والخلفاء الراشدون بعده والأئمة الفاتحون والعلماء المجددون والأئمة العدول والولاة المصلحون، صارت أمة بحق تستحق أن يقول لها الشاعر:

يَا أُمَّةَ الْمَجْدِ، قُومِي مَزِّقِي الْحُجُبَا ... وَأَشْعِلِي فِي لَيَالِي دَهْرِكِ الشُّهُبَا

لا تَذْكُرِينَ صَلاحَ الدِّينِ سَفْسَطَةً ... مِنْ غَيْرِ بَذْلٍ؛ صَلاحُ الدِّينِ قَدْ ذَهَبَا

لا يكفي فقط أن نجتر الماضي، فالأسلاف أصلحوا وأفلحوا ونجحوا، لكن ماذا فعلنا نحن؟!

لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ: كَانَ أَبِي ... إِنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ هَا أَنَا ذَا

إِذَا فَخَرْتُ بِآبَاءٍ بِهِمْ كَرَمٌ ... نَعَمْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

بل أرنا من نفسك أنت ابناً، كما يقول الأول:

لَسْنَا وَإِنْ كَرُمَتْ أَوَائِلُنَا ... يَوْماً عَلَى الأَمْجَادِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... تَبْنِي، وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

قال أبو جعفر المنصور:

نَبْنِي فَوْقَ مَا فَعَلُوا ... وَنَفْعَلُ فَوْقَ مَا فَعَلُوا

وهذا هو الابن دائماً يكون أقوى ويحرص على أن يكون أحسن من أبيه ومن جده بأفعاله الحميدة وبسيرته المجيدة، فهنا يقول:

لا تَذْكُرِينَ صَلاحَ الدِّينِ سَفْسَطَةً ... مِنْ غَيْرِ بَذْلٍ؛ صَلاحُ الدِّينِ قَدْ ذَهَبَا

هو انتهى، لكن أنت جدِّد واكتب وسِرْ على ما سار عليه الأول.

ومن الأبيات الجميلة في هذا الباب الذي أنشده الناس يوم العدوان الثلاثي، يوم خرج المصريون يكبرون ويُهَلِّلون على العدوان الثلاثي الذي تعرضت له بلادهم وأوطانهم، حتى يقول شاعرهم:

أَخِي! جَاوَزَ الظَّالِمُونَ الْمَدَى ... فَحَقَّ الْجِهَادُ وَحَقَّ الْفِدَا
أَنَتْرُكُهُمْ يَغْصِبُونَ الْعُرُوبَةَ ... أَرْضَ الْأُبُوَّةِ وَالسُّؤْدَدَا
فَجَرِّدْ حُسَامَكَ مِنْ غِمْدِهِ ... فَلَيْسَ لَهُ بَعْدُ أَنْ يُغْمَدَا

للسيف موضع وللحوار موضع وللين موضع وللرفق موضع ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. فالذي يعتدي علينا نرد عدوانه، نحاور من حاورنا، ونسالم من سالمنا، ونحارب من حاربنا، هكذا الإسلام ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

وأبو الطيب المتنبي يقول:

فَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

ما قام كيان في العالم ولا دولة في العالم إلا بالقوة وبالمناعة والعزة

لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى ... حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ

فالولايات المتحدة الأمريكية توحدت بالدم، وثورة فرنسا بالدم، وثورة ألمانيا بالدم، والإسلام قام على العدل والإنصاف لكن قام بقوة وعزّة وسؤدد، فمن أحب العدل أُعْطِي العدل، ولكن إذا جار وظلم وأراد الاعتداء وأراد الإفساد فما حقه إلا أن يؤدب، فيجب أن يُفرَّقَ بين هذا وبين هذا، لأن بعضهم ينشر أنه ليس عندنا جهاد ولا سيف وأنا أناس طيبون محبوبون نحب الحوار، وهذا تدجين للأمة؛ نحن أمة عدة وأمة سلام ولكن أمة قوة، وأمة محبة وحوار ولكن أمة سؤدد، وأمة لين وأمة رفق لكن أمة مجد، حتى يقول شاعر المسلمين:

سَلُوا الرِّمَاحَ الْعَوَالِي عَنْ مَعَالِينَا ... وَاسْتَشْهِدُوا الْبِيضَ هَلْ خَابَ الرَّجَا فِينَا؟

يعني المسلمين.

البيض: السيوف. قال المعاصر: الأمة الآن تعيش في غوغائية كغثاء السيل.

فهو يشيد بمجد الأمة. حتى إن إقبال يشيد بمجد هذه الأمة التي صنعت التاريخ ودخل دينها القارات الست، وقام خطباؤها على منابر الدنيا يصلون يوم الجمعة يخطبون في أصقاع العالم، من سيبيريا إلى الأطلسي إلى سور الصين العظيم، وهم يبشرون بهذا الدين الجديد الذي هو فجر البشرية وهو انتصار وفتح لها، حتى إن محمد إقبال يقول:

نَحْنُ الَّذِينَ اسْتَيْقَظَتْ بِأَذَانِهِمْ ... دُنْيَا الْخَلِيقَةِ مِنْ تَهَاوِيلِ الْكَرَمْ

يقول: كان الكون نائماً، كان في ليل مطبق، فأذن بلال ﷺ فأذن المؤذنون في العالم فاستيقظ العالم، كان العالم نائماً قبلنا.

حَتَّى هَوَتْ صُورُ الْمَعَابِدِ سُجَّدَاً ... لِجَلالِ مَنْ خَلَقَ الْوُجُودَ وَصَوَّرَا

كان الناس قبل الإسلام يعبدون الأصنام والأوثان ويعبدون البقر والتماسيح، ولهم صور ولهم ألعاب وأوهام، ولهم سحر ولهم شعوذة وإفك وإثم وخرافة وكذب ودجل، فلما بُعِث الإسلام بلا إله إلا الله، محمد رسول الله قال:

حَتَّى هَوَتْ صُورُ الْمَعَابِدِ سُجَّدَاً ... لِجَلالِ مَنْ خَلَقَ الْوُجُودَ وَصَوَّرَا
وَمَنِ الَّذِي بَاعَ الْحَيَاةَ رَخِيصَةً ... وَرَأَى رِضَاكَ أَعَزَّ شَيْءٍ فَاشْتَرَى
وَمَنِ الَّذِي دَكُّوا بِعَزْمِ أَكُفِّهِمْ ... بَابَ الْمَدِينَةِ يَوْمَ غَزْوَةِ خَيْبَرَا

علي ﷺ لما دخل خيبر قال له رسول الله ﷺ: «**لَسْنَا قَتَلَةً، بُعِثْنَا رَحْمَةً وَهِدَايَةً وَفَتْحَاً**». فعلي بن أبي طالب ﷺ أخذ السيف وقاد الكتيبة والجيش يريد أن يفتح خيبر، والرسول ﷺ ليس حريصاً على قتل الناس حتى اليهود، قال: «**يَا عَلِي، ادْعُهُمْ إِلَى لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ - فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ- لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لك مِنْ حُمرِ النَّعَمِ**». فيقول: قبل أن تبارزهم حاول أن

تدعوهم عسى الله أن يهديهم إلى الحق؛ لأننا نريد هدايتهم، ليس لنا مصلحة في أن يدخل أحد النار، بل مصلحتنا أن يهتدي وأن يدخل الجنة، ليست مصلحتنا في أن يُعذب العالم، بل أن يهتدوا وأن يُرْحموا برحمة الله ﷻ، ولذلك كما في صحيح البخاري سمع رسول الله ﷺ أن غلاماً يهودياً كان جاراً له في سكرات الموت، فقال رسول الله ﷺ: «**قُومُوا بِنَا إِلَيْهِ**». يا للوفاء ويا للخلق الجم ويا للتواضع ويا للسجايا الحميدة! فلا يُلمنا أحد في حبه ﷺ وإنا لمعذورون، ولا يعترض علينا أحد من غير المسلمين، فإنا في حبه واتباعه لمأجورون، وإن قوماً أحبوه واتبعوه فإنهم على الحق سائرون، وإن قوماً عشقوا مثله العليا لهم المنصورون عند الله ﷻ، ولذلك قال ﷺ: «**قُومُوا بِنَا إِلَيْهِ**». **فَأَتَوْا فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ رَأْسِ الْغُلَامِ الْيَهُودِي**. يهودي على غير الملة، فأخذ ﷺ يدعوه إلى: لا إله إلا الله. قبل أن يموت، قال ﷺ: «اشْهَدْ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ **اللهُ** وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ». ويخبره ﷺ أنه يصدق بما أتى موسى عليه السلام «**فَالْتَفَتَ الْغُلَامُ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ لأَبِيهِ**». يهودي صلت جلف عند أقدامه ليس مسلماً، أي: كيف تُشيرُ علي؟ قال: «**أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ**». لأن أباه تأثر لأن الرسول ﷺ زاره في البيت وهو سيد الخلق أجمعين، فقال الغلام: **أَشْهَدُ أَن لا إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ**. فخرج ﷺ يقول: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**». فيا للخلق!

هذا هو المجد.

وبعضهم يصف مجد الأمة وبعضهم يصف مجد القبيلة، لكن مجد الأمة والملة أعظم مجد؛ لأنه مجد عام ومجد سؤدد، وإلا فكل الناس لهم مجد، حتى يقول الحسين بن المطيري يمدح بني مطر قبيلة من قبائل العرب، فيقول:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... أُسُودٌ لَهَا فِي بَطْنِ غَطَفَانَ أَشْبُلُ

هُمُ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حتَّى كَأَنَّهُ ... لِجَارِهِمُ بَيْنَ السَّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ
بَهَالِيلُ فِي الإِسْلامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ ... لأَوَّلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا ... أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

إلى آخر ما قال، وهي من أحسن قصائد المدح.

وابن قابوس- ملك قديم في القرن الرابع- ابتُلي بابتلاءات واضطُهِد وسُجِنَ، وجاءت عليه ثورات وشمت به أعداؤه، وكان شاعراً مجيداً في الشعر، فقال:

أَمَا تَرَى الْبَحْرَ تَعْلُو فَوْقَهُ جِيَفٌ ... وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ دُرَرُ
وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ لا عِدَادَ لَهَا ... وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلاَّ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

كم في السماء من نجم، ولكن لا يتعرض للأفول إلا الشمس والقمر، فيصيبهما الخسوف والكسوف، ومن هنا، فلا يعيِّر أحدٌ أحداً، لأن الأبطال والبارزين والمبدعين والمنتجين والنافعين والمفيدين والواجهات والرموز دائماً هم الذين تأتيهم الضربات ذات اليمين وذات الشمال، كما يقول أبو الطيب المتنبي:

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ ... فَهْيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ

وأبو تمام يقول:

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ... طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ
لَوْلا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ نَفْحِ الْعُودِ

فدل على أن المجد يُتعب له، حتى يقول أبو الطيب المتنبي:

لا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلاَّ سَيِّدٌ فَطِنٌ

المجد لا يُباع في السوق، ولا يحصل عليه السفيه والغبي، المجد لا يأتي على طبق من ذهب هدية، بل يأتي المجد بدماء ودموع وأشلاء، حتى مع غير المسلمين؛ فهذا نيسلون منديلا أخذ المجد في سبع وعشرين سنة في زنزانة وراء الحديد بالقضبان، وألف كتاباً اسمه: رحلتي الطويلة في الحرية. وخرج بدماء ودموع وجهاد وسهاد وسهر وسفر، فيقول المتنبي:

لا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إلاَّ سَيِّدٌ فَطِنٌ ... لِمَا يَشُقُّ عَلَى السَّادَاتِ فَعَّالُ

لا خَامِلٌ جَهِلَتْ كَفَّاهُ مَا بَذَلَتْ ... وَلا جَبَانٌ بِغَيْرِ السَّيْفِ سَئَّالُ

لَوْلاَ الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الْجُودُ يُفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ

فالمجد له ثمن يوم يقول الأول:

ثَمَنُ الْمَجْدِ دَمٌ جُدْنَا بِهِ ... فَاسْأَلُوا كَيْفَ دَفَعْنَا الثَّمَنَا

يقول: لما طلبتنا المعركة والانتصار والاستقلال كل دولة لها رموز.

أنا ذهبت إلى إندونيسيا والشارع الرئيس في جاكرتا: أبطال الاستقلال. وإذا هم هناك لهم صور، قالوا: هؤلاء الذين شاركوا في القتال، وقاتلوا هولندا حتى حفظت أسماؤهم عند الأمة.

وتذهب في أفريقيا وإذا زُعَماء الإصلاح وأبطال الاستقلال والمكافحون عن مجد الأمة، وعندنا من الرموز وعندنا من السادات ومن الأخيار ما نحفظ أسماءهم؛ لأنهم قدموا لبلادهم ولأوطانهم من التضحية ومن الفداء ومن النبل، فمن وفائنا لهم أن نحفظ أسماءهم وأن نقدرها وأن نحترمها، سواء في الجانب العلمي أو الجانب السياسي أو الجانب الفكري أو الاقتصادي أو الأدبي، كل من نفع أمته ووطنه وقدَّم لها خدمة راقية من الإصلاح والإعمار والبناء احترمناه وسجلنا اسمه وترحمنا عليه، ولكن أيضاً كل من سعى في خرابها ودمارها وفي الإفساد

ألغيناه من الذاكرة وحاربنا اسمه ولم نرضَ فعله؛ لأن الله ﷻ يُحب الإصلاح والصلاح ولا يحب المفسدين ولا يهدي عمل الخائنين.

قرأت أن الوزير أبا الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح الذي قال عنه الذهبي إنه: وزر غير مرة للمقتدر، وللقاهر، وكان عديم النظير في فنه، ويخبر عنه الصولي، قائلاً: «لا أعلم أنه وزر لبني العباس مثله في عفته وزهده وحفظه للقرآن، وعلمه بمعانيه...» يحكي عنه المحدث أبو سهل القطان: كنت معه لما نفي بمكة [فدخلتها في حر شديد، وقد كدنا نتلف] فطاف يوماً، وقد جاء فرمى بنفسه، وقال: أشتهي على الله شربة ماء مثلوج. قال: فنشأت بعد ساعة سحابة ورعدت، وجاء بَرَد كثير جمع منه الغلمان جرارًا، وكان الوزير صائماً، فلما كان الإفطار جئته بأقداح من أصناف الأسوقة، فأقبل يسقي المجاورين، ثم شرب وحمد الله، وقال: ليتني تمنيت المغفرة. ولما رجع إلى بغداد حصل الانقلاب وحُكِمَ عليه بالإعدام. ومشى، والناس كل ينظر إليه منهم الحساد والشامتون، فقال:

وَمَنْ يَكُ عَنِّي سَائِلاً لِشَمَاتَةٍ ... لِمَا نابني أو شَامِتًا غَيْرَ سَائِلِ

فَقَدْ أَبْرَزَتْ مِنِّي الخُطُوبُ ابْنَ حُرَّةٍ ... صَبُورًا عَلَى أَحْوَالِ تِلْكَ الزَّلازِلِ

يقول: الحمد لله، قضاء وقدر، أنا أذهب إلى الموت ورأسي مرفوع، أنا أذهب وأنا شريف، أنا ألقى حتفي وأنا على مجد وعلى هداية ربانية. لأن أعظم المجد طاعة الله ﷻ والانتصار له، فهو كان وزيراً وأنصف في حكمه وأنصف في ولايته، ثم حصل له شيء وقام عليه أعداؤه وحكموا عليه بالإعدام. فانظر هذا الثبات! يقولون: مُسَلْسَل بالحديد. ويذهب إلى المنصة، حيث المشنقة، فيُشنق ويُعدم، ومع ذلك التفت إلى الجمهور، وقال تلك الأبيات؛ أي: أعلموا من لم يسأل بشماتة عنا، والذي شمت وما سأل.

ولذلك لما قُتِلَ الوزير ابن بقية قال أبو الأنباري فيه وهو مصلوب:

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ ... لَحَقٌّ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ

كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا ... وُفُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصِّلَاتِ

كَأَنَّكَ وَاقِفٌ فِيهِمْ خَطِيباً ... وَهُمْ وَقَفُوا قِيَاماً لِلصَّلَاةِ

مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمُ احْتِفَاءً ... كَمَدِّهِمُ إِلَيْهِمْ بِالْهِبَاتِ

هذا مجد يصل بك إلى رب العالمين، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

بر الوالدين

بـر الوالدين مـن الحكمـة والأدب والشرف، وبعـد حق الله ﷻ حق الوالدين، فليس في العالم أحـد متفضل عليك بعد تفضـل الله ﷻ كتفضل الوالديـن، ليس فـي العالم من حرصـ عليك ولا قـدم لك ولا أسـدى لك جميـلاً ولا نفعك ولا كان سببـاً في وجودك، بعد فضل الله ﷻ كالوالدين، فهما بمنزلة الروح لمن كان له قلب ولمن كان عنده ضمير ووفاء، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ

أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]. ثم يقول عز وجل ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]. أُفٍّ هي أصغر كلمة تضجر أو تأفف أو تذمر، حتى هذه الكلمة لا تقُلها، فكيف بما فوقها من الكلام؟!

وجعل عز وجل من أسباب إطالة العمر والبركة في الرزق وانشراح الصدر بر الوالدين، حتى إن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يريد الجهاد، فقال ﷺ: «**أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ**». وقال لرجل: «**الْزَمْ رِجْلَ أُمِّكَ فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلِهَا**». أي: في خدمتها وفي طاعتها، وفي أثر: «**الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ**».

ولذلك تبارى الشعراء والحكماء في هذا الفضل وهذا الخير تنويهاً ودعوة ونصحاً لمن اتقى الله وقَبِلَ النصح. يقولون: مُنَازِل- رجل من ثقيف- عقَّ أباه. فقال أبوه فيه:

وَرَبَّيْتُهُ حَتَّى إِذَا مَا تَرَكْتُهُ ... أَخَا الْفَحْلِ وَاسْتَغْنَى عَنِ الطِّرِّ شَارِبُهْ

قال: ربيته، حتى صار كبيراً.

تَغَمَّطَ حَقِّي ظَالِمًا وَلَوَى يَدِي ... لَوَى يَدَهُ اللهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهْ

يقول: أغضبه ثم لوى يده أمام الناس. شيخ كبير ووالد وصاحب حق، ثم يفعل بي هذا الفعل؟! أكبر عاق هو منازل الذي صار مضرب المثل عند الناس، وذكر الزمخشري صاحب الكشاف فيما يُروى أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: «**يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنِي رَبَّيْتُهُ مِنْ صِغَرٍ وَأَطْعَمْتُهُ مِنْ جُوعٍ، سَهِرْتُ لِيَنَامَ وَتَعِبْتُ لِيَرْتَاحَ فَلَمَّا كَبُرَ تَغَمَّطَ حَقِّي وَظَلَمَنِي! فَدَمَعَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: أَمَا قُلْتَ فِيهِ شِعْرًا؟** - لأنه ﷺ يعرف أنه شاعر- **قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: مَاذَا قُلْتَ؟ قَالَ**: قلت:

غَدَيتُكَ مَولُوداً وَعِدتُكَ يَافِعاً ... تَعُلُّ بِمَا أُجْرِي عَلَيْكَ وَتَنْهَلُ
إِذَا لَيْلَةٌ ضَافَتْكَ بِالسُّقْمِ لَمْ أَبِتْ ... لِسُقْمِكَ إِلاَّ سَاكِيَاً أَتَمَلْمَلُ
كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي ... لُدِغْتَ بِهِ دُونِي فَعَيْنَايَ تَهْمِلُ

أنت تمرض وكأني أنا المريض، وتصيبك الحمى، فتصيبني أنا الحمى، ولذلك جرّب فتعلم من أبيك وأمك أنهم لا ينامون إذا مرضت، وإذا غبت فهم معك بقلوبهم وأرواحهم، يرضون أن يجوعوا لتشبع وأن يتعبوا وترتاح وأن يسهروا وتنام وأن يشقوا وأنت تسعد، قال:

كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي ... لُدِغْتَ بِهِ دُونِي فَعَيْنَايَ تَهْمِلُ
فَلَمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي ... إِلَيْهَ مَدَى مَا فِيكَ كُنْتُ أُؤَمِّلُ
جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَفَظَاظَةً ... كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ
فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِي ... فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ

يقول: ليتك فعلت كالجيران؛ كففت أذاك وكنت مسالماً، إذا ما استطعت البر وما استطعت العطاء وما استطعت إرضاء الوالدين، فعلى الأقل سالمهم وكف أذاك عنهم، لكن نعوذ بالله أن يصل بالإنسان إلى أن يؤذي والده أو يؤذي والدته أو يجفوهما.

ولذلك، فقد رأيت أن أكثر من وُفّق في الحياة من برّ والديه جميعاً، الرسول ﷺ صُنِعَ له منبر من ثلاث درجات؛ ليرتقي عليه خطيب العالم ومُصْلِحُ الدنيا «**فَصَعِدَ الدَّرَجَةَ الْأُولَى فَقَالَ: آمِينَ. ثُمَّ صَعِدَ الدَّرَجَةَ الثَّانِيَةَ فَقَالَ: آمِينَ. ثُمَّ صَعِدَ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: آمِينَ. ثُمَّ جَلَسَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ عَلَى مَاذَا أَمَّنْتَ؟ قَالَ: لَمَّا صَعِدْتُ الْأُولَى أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: رَغِمَ أَنْفُ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ فِي الْكِبَرِ أَوْ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، قُلْ: آمِينَ. قُلْتُ: آمِينَ. وَلَمَّا صَعِدْتُ الثَّانِيَةَ قَالَ لِي: رَغِمَ أَنْفُهُ مَنْ أَدْرَكَهُ رَمَضَانُ**

وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، قُلْ: آمِينَ. قُلْتُ: آمِينَ. فَلَمَّا صَعِدْتُ الثَّالِثَةَ قَالَ لِي: رَغِمَ أَنْفُ مَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، قُلْ: آمِينَ. قُلْتُ: آمِينَ». فانظر كيف جعل سبب غفران الذنوب بر الوالدين، ولهذا صار ممن بر بالإسلام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد العشرة، كان طيب القلب صحيح الطريقة، وهو المقصود بالرجل في الحديث الذي يقول: «**يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ هَذَا الْبَابِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**». فلما جلس معه عبد الله بن عمرو «قال سعد رضي الله عنه: «**لَسْتُ كَثِيرَ صَلاةٍ وَلا صِيَامٍ وَلَكِنِّي مَا بِتُّ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي وَفِي قَلْبِي غِلٌّ عَلَى أَحَدٍ**». كان طيب السريرة وكان باراً بأمه رضي الله عنه، فلما أسلم أبت أمه الإسلام ورفضت وأقسمت ألا تأكل الطعام؛ حتى يرتد عن دينه فأخذها باللين وبرّها وقبّل رأسها وسألها بالله، فقالت: أبداً، والله لا آكل الطعام؛ حتى ترتد عن الإسلام. قال: «**يَا أُمَاهُ، وَاللهِ لَوْ أَنَّ لَكِ شَعْرَ رَأْسِكِ نُفُوساً، فَتَخْرُجُ نَفْساً نَفْساً أَمَامِي عَلَى أَنْ أَرْجِعَ عَنْ دِينِي مَا رَجَعْتُ؛ فَكُلِي أَوِ اتْرُكِي**». وفي آخر النهار أكلت، وقال بعض أهل العلم: ثم أسلمت فيما بعد.

ومنهم أويس القرني قال ﷺ عنه: «**مَنْ أَدْرَكَهُ فَلْيَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ**». كان من صالحي التابعين وسيد التابعين، فقال: «**وَلَهُ أُمٌّ هُوَ بِهَا بَارٌّ**». فكان يبر أمه حتى يقول: إنه كان إذا اقرب الطعام لا يضع يده حتى تضع أمه يدها، ويقول: أخشى أن آكل معها فتقع عينها على شيء من الطعام وأنا آكل منه فيتحرج رضي الله عنه «**وَيَقُومُ فِي خِدْمَتِهَا، وَكَانَ يَغْسِلُ الْغُبَارَ عَنْ أَقْدَامِهَا**». فرفع الله ذكره وأعلى قدره.

ولذلك مما تُستنزل به البركات وتُستدر به الرحمات ويرضى به رب الأرض والسموات وترفع الدرجات وتُضاعف الحسنات وتُكفّر السيئات بر الآباء والأمهات، ما أحسن أن يقول لك أبوك: بارك الله فيك. وتقول الأم: غفر الله لك. انظر دعوة الأم. لذلك جعل ﷺ للأم ثلاثة أرباع الحق، قال رجل: «**مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أَبُوكَ**». فجعل لها ﷺ ثلاثة أرباع الحق من

التقدير والتوقير والاحترام.

ثم إنها ضعيفة، يقولون: أعرابي ذهب إلى الحرم فأخذ يدعو لأمه وأكثر لها الدعاء، قال له رجل بجانبه: ولأبيك. قال: أبي قوي يدافع عن نفسه. فانظر لجهله يظن أنه يوم القيامة يريد أن يدافع بقوة، وليس صحيحاً فكلٌّ يوم القيامة ضعيف ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥]. لكنها أمثال تُضرب.

وممن حفظ التاريخ لهم البر رجل من أهل اليمن كان يحمل أمه ويطوف بها عند البيت، في شدة الحر، وعرقه يتصبب فقال لابن عمر «: أتراني- يا بن عمر- وفيتُ بحقها؟ أي: رددت لها الجميل؟ قال: «وَلَوْ بِزَفْرَةٍ مِنْ زَفَرَاتِهَا». ولو بطلقة من طلقاتها وقت الولادة ما رددت هذا الجميل، فنسأل الله أن يغفر لآبائنا وأمهاتنا وأن يجزينا عنهم خيراً، وأن يتولى برهم ﷻ.

وممن كان يبر بأمه ابن سيرين، فكان مضرب المثل في ذلك، فقال: ما صعدت سطح بيت وأمي تحته في الغرفة أخشى أن أعلو بنفسي عليها، وما أكلت مع أمي من مائدة أخشى أن تشتهي طعاماً فآكله قبلها، وكان إذا كلمته أمه يقف عندها، وكان يخفض رأسه كأنه يستزيدها من الحديث، وكان لا ينام حتى تنام أمه ويهيئ لها وضوءها وماءها وشربها ولبنها، ولذلك تجد أن من الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، ففرج عنهم أولهم رجل يقول: «**يَا رَبِّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ إِنِّي أَتَيْتُ بِالإِبِلِ فَأَرَحْتُ إِبِلِي وَحَلَبْتُ اللَّبَنَ. وَلَهُ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَقَدْ نَامَا، فَأَتَيْتُ فَإِذَا أَطْفَالِي يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ أَقْدَامِي، وَالأَطْفَالُ يَصِيحُونَ: اسْقِنَا لَبَناً. فَبَقِيَ حَتَّى بَرَقَ الصَّبَاحُ، فَلَمَا بَرَقَ وَطَلَعَ الْفَجْرُ أَيْقَظَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ فَسْقَاهُمَا ثُمَّ سَقَى أَطْفَالَهُ، قَالَ: إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ لِوَجْهِكَ، فَاكْشِفْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ**». فانفرج من الصخرة الثلث ثم كمَّل البقية ففرج الله عنهم ﷻ. فالشاهد بر الوالدين وعظمة هذا البر وما لهم

مـن الحقوق، حتى إنك تجـد أنه مهما فعل الولد مع والديه فلا يمكن أن يُنصِفَهم ولو حج أو اعتمر أو دعا، فدائمًا الحق للوالدة ثم الوالد لعظم ما قدَّموه، فالوالدة حملـت به كرهـاً على كره ووضعته ثـم أرضعته ثم ألحفته، ثـم أدفأته ثم أطعمته ثـم أسقته ثم تولته بحنانهـا، والأب رعاه وأدبه وأنفق عليه وكدّ عليه وكساه وحماه وتـولاه، فنسأل الله أن يتولـى جزاءهما عنده من الغفـران والرضوان فإنه الملك الرحمن ﷻ.

فهـذه رسالة لأنـاس يعيشون العقوق؛ فإن من عقّ ربه عـقّ والديه، ومن نسي مـولاه نسي أهل الحق الذي يجب عليه، لأن الحقـوق لا بُدَّ من أن تؤدى إلى أهلها، لكـن مـن أعرض عن ذكر الله ﷻ وأدبر عن الهداية واستبدل بها جلساء السوء، ولـم يكن لـه مطالعة في كلام الحكمـاء وكلام أهل العلـم وكلام أهل الفهم ضل سـواء السبيل. وإلا فالعقول تشهد، حتى إنك تجد في عصرنا عن غير المسلمين، مثلاً اليهود والنصارى عندهم من تقدير الوالدين الشيء العظيم وعندهم قصص وأخبار في ذلك. وقد قرأت في كتبهم وفي تاريخهم ما يثير العجب، فأقول: هؤلاء وهم على دين منسوخ ودين محرف، فأين أبناء الإسلام من هذا البر؟!

ومـا زال- والحمـد لله- فـي الجيل والمجتمع مـن البررة مـن يُضرب فيهم الأمثـال في البر، وأعلم أناساً كثيـراً حتى إن منهم من يبتدئ صباحه بتقبيل كف والديـه ويطلب منهمـا الدعاء، فتُفتح أمامـه أبواب الخير وأبـواب الرزق وأبواب التسهيـل وأبـواب التيسير. أعرف كاتباً عربياً لو قلت لكـم: إنه أشهر كاتب عربي لما بالغت، فهو يُشارك في بعض القنوات بلغ قرابة التسعين، حتى إنه يقول: سبب توفيقـي أن أمـي كانت تقـول: الله يفتح لك أبـواب التوفيق. يقول: كنـت آتيها كل صبـاح فأقدم لها الحليـب وأخدمها وأقدم حذاءها، فتقـول: الله يفتح لك أبواب التوفيق. قال: فما سلكت طريقاً إلا فُتِحَ لِي. لأن هذا دعاء صادق ودعاء حار، حتى إنه يقال: بِرُّوا آباءكم يبركم أبناؤكم.

ومما يُروى في الأخبار الشعبية أن رجلاً سحبه ابن في درج عنده في البيت، فقام الجيران لنجدته، فإذا الابن العاق يسحب أباه في الدرج، فلما وصل الدرجة الثانية عشرة، قال أبوه: قف، والله إني سحبت والدي إلى هذا المكان وهذا جزائي. فيقول هو: أنت جازيتني بجزاء أبي فقد عققت أبي وأنت عققتني، فالجزاء من جنس العمل.

وقد يُقصر الوالد كذلك بأن لم يعلم ابنه ولم يربِّه ولم يعلمه كتاب الله عز وجل ولا سنة رسول الله ﷺ ولا أجلسه عند أهل العلم إنما تركه جاهلاً، ويُذكر في الأخبار عن بعض العلماء أن رجلاً أتى بابن له وإذا الابن سمين بدين متين، قال العالم: ما لك؟ قال: هذا ابني ضربني. قال: سبحان الله! ابنك يضربك؟! قال: اختلفت معه اليوم فمد يده يضربني، فأريد أن تنصحه. فأتى يسأل الابن فإذا هو جاهل بالقرآن وجاهل بالسنة وجاهل بالأدب والحكمة، فالتفت العالم إلى الأب وقال له: عَلَّمْتَه القرآن؟ قال: ما علمته؛ شُغِلْنَا. قال العالم: حفَّظْتَهُ شيئاً من سنة رسول الله ﷺ؟ قال: ما علمته. قال: لقَّنته شيئاً من الأدب الذي يحث على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: هو ظنك ثوراً فضربك؛ بما أنك ما علمته ولا ميزت له.

فيقولون: من الأدب كما يقول سفيان: لاعب ابنك سبعاً، وأدِّبه سبعاً، وصاحبه سبعاً ثم اتركه للتجارب. فالسبعة الأولى لاعبه، ولذلك من المصلحة ألا تدرس ابنك حتى يبلغ سبع سنوات، يقول ﷺ: «**مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ**». وهذه التربية معمول بها في بعض دول العالم، يصلون للسابعة؛ لأنه يصل إلى حد التكوين لذهنه ولنفسه ولجسمه، ولذلك لا أُؤيِّد أن يذهب بالأبناء ويُعلمون بالرابعة ويُحشون بالمتون في الخامسة ويتعبون ويرهقون، أنا أرى أن هذه السبع كلها مزاح ودُعَابَةٌ وأخذ بأصول بعض الآداب الخفيفة، فإخوة يوسف عليه السلام يقولون لأبيهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]. لأن الطفل حياته في اللعب، وأمامه أوقات للجد، والأيام أمامه بالغموم والهموم فلا تستعجل

عليــه، وأما السبعة الثانية فأدبه أدباً بِلُطْفٍ في الطعام وفي الشراب وفي الجلوس وفي الصلاة وفي قول الكلام وفي النوم وفي النظام وغير ذلك، أما السبع الثالثة (١٤-٢١) فصاحبه يصبح صاحباً لك، تحترمه، تكفيه الكلمة ويكفيه الإنكار، أما بعدها فاتركه للتجارب؛ فقد أصبح رجلاً وأصبح مثلك؛ فإن صلح فالحمد لله وإن كان غير ذلك فلن تستطيع؛ فالهادي هو الله ﷻ.

فهذا كلامهم في البر الذي نُقِلَ إلينا وأخبارهم كثيرة، ولكنهم كانوا يقدرون بــارّ الوالــد وبارّ الوالدة، حتى إنهم يقولون: الرجــل الكريم لا يأنف من ثلاث: من خدمة والده، وضيفه، وَمُعَلِّمِهِ.

محمد إقبال

محمد إقبال هو شاعر الإسلام في العصر الحاضر، وشعراء العالم في العصر خمسة. ذكر ذلك الصاوي الشعلان والأعظمي فهم: شكسبير في الإنجليز، وجلال الدين الرومي في تركيا، والسعد الشيرازي في إيران، ومحمد إقبال في باكستان، وطاغور في الهند.

ولنأخذ بعض النماذج، فطاغور له قصيدة عن الهند، يقول- بعد ترجمتها-: أنا نزلت إلى شوارع نيودلهي أطلب ربي أن يعطيني مالاً؛ لأشتري سيارة، لكنني رأيت في الشارع رجلاً

مكسور القدمين على دراجة، فقلت: يا ربِّ كفَى كفَى، قدماي تكفي. أي: بالنعم تحمد الله ﷻ على ما عندك، فإن الله قد أعطاك مالاً كثيراً وأنت لا تشعر. وجلال الدين الرومي له أبيات، فيقول:

مَا مَرَّ مِنْ طَيْفِ الْهَوَى بِمَسْمَعِي ... لَوْ سَمِعَتْ وُرْقُ الحِمَى نَاحَتْ مَعِي

يَا مَعْشَرَ الْخِلاَّنِ قُولُوا لِلْمُعَافَى: ... لَسْتَ تَدْرِي مَا بِقَلْبِ الْمُوجَعِ

ونعود إلى محمد إقبال، فهو من الشعراء الكبار الذين قدموا الكثير للإسلام عبر القافية وعبر الأدب الراقي والإبداع الماتع، وشهد له المسلمون وغيرهم بجودة الشعر.

إن محمد إقبال- حسب بعض الأقوال- شاهد على أن الإسلام يُقَدِّر ويحترم كل من اعتنقه، وأنه يُعلِي قدره، سواء أكان من العرب أو من الهنود أو التركمان أو الأتراك أو أي فئة من فئات العالم، فيقول يرثي للعالم الإسلامي بعد التخلف والرفاهية التي يعيشها الإسلام وانحصار الدروس العلمية، فيقول:

أَرَى التَّفْكِيرَ أَدْرَكَهُ خُمُولٌ ... وَلَمْ تَبْقَ الْعَزَائِمُ فِي اشْتِعَالِ

يقول: أين التفكير الأول؛ عقول الصحابة وعقول التابعين ﷺ؟!

وَأَصْبَحَ وَعْظُكُمْ مِنْ غَيْرِ نُورٍ ... وَلا سِحْرٌ يُطِلُّ مِنَ الْمَقَالِ[1]

يعظ الناس، لكن ليس لوعظهم تأثير في القلوب.

وَعِنْدَ النَّاسِ فَلْسَفَةٌ وَذِكْرٌ ... وَلَكِنْ أَيْنَ تَلْقِينُ الْغَزَالِي؟

يقصد صاحب الإحياء، فيقول: أنتم تبهرجون بالعبارات والثقافات الإسلامية، لكن أين صدق الغزالي في الإحياء الذي يلذع قلبك، وذاك لا يوجد إلا عند الغزالي.

(١) أي: لا سحر من الكلام.

مَنَائِرُكُمْ عَلَتْ فِي كُلِّ سَاحٍ وَمَسْجِدُكُمْ مِنَ الْعُبَّادِ خَالِي

أما المساجد فكثيرة ولله الحمد ومبنية على أحدث طراز، ومنقوشة ومزينة ومجملة، وفي الحي عشرة مساجد، وصلاة الفجر لا تجد إلا صفاً واحداً على الأكثر.

وَجَلْجَلَةُ الْأَذَانِ بِكُلِّ حَيٍّ وَلَكِنْ أَيْنَ صَوْتٌ مِنْ بِلَالِ؟

أين صوت بلال الذي يأخذ بشغاف القلوب ويتعمق في الأرواح ويأتي بالناس والمصلين من البيوت، بلال إذا أذّن توقف الزمان، حتى يقول أبو ريشة في قصيدته المشهورة: أنا في مكة.

لَمْ تَزَالِي عَلَى مَمَرِّ اللَّيَالِي مَوْئِلَ الْحَقِّ يَا عَرُوسَ الشَّمَالِ
هَانَ فِي خِدْرِكِ الْوَضِيءِ الْتِفَاتَاتُ ذُهُولٍ وَهَيْمَنَاتُ ارْتِحَالِ
وَاسْتَفَاقَتْ عَلَى صَبَاحٍ جَدِيدٍ مِلْءُ آذَانِهِ أَذَانُ بِلَالِ

فهو ينعى على الأمة في الأذان وفي الوعظ وفي التعليم والتدريس والصلاة، أي: في عصر الانحطاط. قد زار محمد إقبال مسجد الرسول ﷺ وبكى عند القبر، فقال يعتذر:

إِنْ كَانَ لِي نَغَمُ الْهُنُودِ وَدَنُّهُمْ لَكِنَّ ذَاكَ الدنَّ مِنْ عَدْنَانِي

يقول: إن كنت أنا أتكلم بكلام الهنود ولكنة الهنود ولا أعرف العربية الفصيحة، فإن قلبي وروحي من ذاك العدناني ﷺ، أنا أعشق رسالته ومبادئها. ويقول: سبحان الله كيف أن هذا الدين أخرج أمة من الأمم كان أهلها مشركين ومع الأوثان يسجدون للصنم؟! يقول في بيت له:

وَأَصْبَحَ عَابِدُو الْأَوْثَانِ قِدْماً حُمَاةَ الْبَيْتِ وَالرُّكْنِ الْيَمَانِي

فيقول: سبحان الله! كانوا يسجدون لهبل واللات والعزى وأصبحوا الآن حماة البيت وحماة الركن اليماني، يقدمون رسالتهم للعالم الإسلامي كيف تحولوا بهذا الدين الجديد الذي بعث في أرواحهم نوراً، وشعَّ فيهم فجراً جديداً، فأصبحوا هداة ومشاعل حق في البشرية. هؤلاء هم أصحاب الرسول ﷺ.

ويرى أن الحياة لا تساوي شيئاً دون إيمان، ولا قيمة لها دون الإيمان بالله، وأن الإنسان دون إيمان مثل البهيمة إن هو إلا دابة في الأرض، فقال:

إِذَا الإِيمَانُ ضَاعَ فَلا أَمَانٌ ... وَلا دُنْيَاً لِمَنْ لَمْ يُحْيِ دِينَا

وَمَنْ رَضِيَ الْحَيَاةَ بِغَيْرِ دِينٍ ... فَقَدْ جَعَلَ الْفَنَاءَ لَهَا قَرِينَا

تريد حياة دون دين؟! أنت والفناء سواء، تريد حياة دون إيمان؟! أنت والدابة والبهيمة سواء، يقول ﷻ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]. فالإنسان إن لم يكن عنده ثقة بالله وصلة به، فماذا يريد بالحياة وماذا يريد بالبقاء؟! يأكل ويشرب وينام! هذه فلسفته في الحياة.

وهو يمدح دائماً الإيمان والإسلام فيقول:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَوْنٌ ... تَاهَتِ الأَفْلاكُ فِيهِ

يقول: المؤمن مثل الكون، فالمؤمن تجد عنده بصيرة، وعنده فقه بالدين، ومعرفة بالآيات، ومعرفة بالآخرة، ومعرفة بسيرة النبي ﷺ، ومعرفة بالحق والفضيلة يحب العدل.

وَأَرَى الْكَافِرَ تَيْهَاً وَأَرَى ... الْكَاهِنَ تِيهِي

مثل التيه الذي في بني إسرائيل حيران ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي

ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١]. حيران ممزق قلق لا يهتدي، كالشاة العاذر بين الشاتين ليس له مبدأ، ويدعو محمد إقبال المسلم لأن يجسد من نفسه داعية لمنهاج محمد ﷺ وأن ينشر مبادئ الرسول ﷺ في العالم، يقول:

أَنْتَ كَنْزُ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ فِي ... لُجَّةِ الدُّنْيَا وَإِنْ لَمْ يَعْرِفُوكَا

يقول: ما بقي في هذا العالم إلا المؤمن المتبع رسول الله ﷺ، أنت الدرة في البحار وغيرك لا يساوي شيئاً وهم خشب وحطب.

مَحْفَلُ الْأَجْيَالِ مُحْتَاجٌ إِلَى ... صَوْتِكَ الْعَالِي وَإِنْ لَمْ يَسْمَعُوكَا

العالم يحتاج إلى نبرة في الحق والعدل والسلام التي يبعثها المؤمن والمسلم لرفع راية الحق والإيمان في العالم وبث النور في المعمورة.

ثم يقول في أنشودة له: شكوى وجواب شكوى:

حَدِيثُ الرُّوحِ لِلْأَرْوَاحِ يَسْرِي ... وَتُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِلا عَنَاءِ

يقول: يا أيها المسلمون، أبث لكم حديث روحي، وسوف أرسل لكم رسالة من أعماقي ومن فؤادي، دعوني أبث لكم شكواي أيها المسلمون.

هَتَفْتُ بِهِ فَطَارَ بِلا جَنَاحٍ ... وَفَضَّ أَنِينُهُ صَدْرَ الْفَضَاءِ

وَمَعْدِنُهُ رُخَامِيٌّ وَلَكِنْ ... جَرَتْ فِي لَفْظِهِ لُغَةُ السَّمَاءِ

يقول: في صوتي لغة القرآن، أنا أستشهد بالآيات والأحاديث، ولذلك يكاد صوتي يفض الكون وتهتز له السماء والأرض، هذا لأن معي آية محكمة ورسالة خالدة. أي: يصفها للعالمين، ثم يتكلم عن الأمة الإسلامية وهو يناجي ربه عند المقام في قصيدة اسمها: تاج مكة. أي: البلد المقدس الحرام الكبير تاج مكة، فيقول:

يا ربّ، نحن أمة الإسلام، نحن الذين صلينا على ضفاف النوار وسجدنا في سيبيرنا، نحن الذين رفعنا السيوف لرفع اسمك.

يَا رَبِّ مَنْ ذَا الَّذِي رَفَعَ السُّيُوفَ ... فَوْقَ هَامَاتِ النُّجُومِ مَنَارَا

من غير أمة الإسلام أمة العرب الأولى التي ارتفعت سيوفها، فارتفعت كلمة: لا إله إلا الله؟ حتى يرتفع فوق الأفلاك اسم: لا إله إلا الله.

لَنْ تَنْسَى إِفْرِيْقِيَا وَلا صَحْرَاؤُهَا ... سَجَدَاتِنَا وَالأَرْضُ تَقْذِفُ نَارَا

يقول: كنا نتقدم في المعارك، فإذا أذن المؤذن وضعنا كل شيء وصلينا. حتى إنه يقول في قصيدة أخرى:

نَحْنُ الَّذِينَ إِذَا دُعُوا لِصَلاتِهِمْ ... وَالْحَرْبُ تَسْقِي الأَرْضَ جَامَاً أَحْمَرَا

أي: دماً. فيقول: الحرب مشتعلة والدم يسيل والرؤوس تتساقط وتتطاير الأرواح، فإذا سمعنا: الله أكبر.

فَإِذَا سَمِعْنَا: اللهُ أَكْبَرُ عنت الْوُجُوهُ إِلَى ... الْحِجَازِ مَسْمَعِ الرُّوحِ الأَمِينِ فَكَبَّرَا

يقول: يُكَبِّر لنا ويكبر جبريل عليه السلام في السماء وتُفتح أبواب السماء وتفتح أبواب الجنة، فيتصل تكبير الأرض بتكبير السماء، وتكبير الملائكة بتكبير المؤمنين.

يَوَمِ الْتَقَى الرَّسُولَ مُحَمَّدٌ ... قَالَ لَهُ جِبرِيلُ: اقْرَأْ

ذهبت إلى أندونيسيا في جاكرتا في معرض الكتاب من أجل كتاب (لا تحزن) ونائب رئيس الجمهورية هو الذي افتتح المعرض، فقام شابان منشدان من أندونيسيا بلغتهما، ينشد أحدهم، ويرد عليه الثاني، فيقول: اقرأ. فيقول: ما أنا بقارئ. أبكانا جميعاً، ينشد ويقول بالأندونيسي: إن هذا قول جبريل عليه السلام ورسول الله ﷺ يرد عليه، فيقول: اقرأ. فيقول الآخر: ما أنا بقارئ. ويضع يده على فمه، فبكى الناس.

تلك الليلة بدأ تاريخنا واتصلت الأرض بالسماء وفي تلك الليلة انتهى الظلم في العالم وانتهى الكفر، بدأنا مرحلة جديدة وبدأنا نطل على الكون وبدأنا نقود البشرية، يقول الشاعر الشعبي:

ليلة الغار جبريل ومحمد وآخر الليل خير من اوله

وَالمجالس روى مسلم وأحمد والرسالة مصالح مرسلة

أي: مجالسنا. بدلاً من الحكاوي والعبارات الفارغة من درجات حرارة وغيرها وأسعار التمر والشعير، فقد انتهى موضوعها وما عادت إلا أحاديث رواها مسلم وأحمد. الرسالة السماوية.

فقال إقبال:

لَنْ تَنْسَى إِفْرِيْقيَا وَلا صَحْرَاؤُهَا سَجَدَاتِنَا وَالأَرْضُ تَقْذِفُ نَارَا

وَكَأَنَّ ظِلَّ السَّيْفِ ظِلُّ حَدِيقَةٍ خَضْرَاءَ تُنْبِتُ حَوْلَنَا الأَزْهَارَا

لَنْ نَنْسَى طَاغُوتاً يُحَارِبُنَا .....

يقول: يوم فتحنا باسم الله الأرض، ويوم عبرنا القارات ومشينا على البحار والقفار بـ(لا إله إلا الله) يقف الطاغوت أمامنا فما نخشاه.

وَلَوْ نَصَبَ الْمَنَايَا حَوْلَنَا أَسْوَارَا

يقول: مهما وضع من منايا، وحاول قتلنا.

أَرْوَاحُنَا- يَا رَبِّ- فَوْقَ أَكُفِّنَا

يقول: نقدم أرواحنا هدية لله الواحد. كما يقول خلف:

في سوق جاتك ما هي سوق هونا

يقول: «أتينا من فين»؟

وإن دندنت طلبة الحرات دندنا ... بآيات حق علي وبلال دندنها

وأنا أشكره؛ لأنه يقول في شعب الرسالة:

عندنا شعب يصد الهجوم الصائلات ... من بغانا بالهزيمة يذل ويهزم

الرسالة عندنا دائماً حكم وثبات ... نُفْهِم اللي ما فهم وان بغى لا يفهم

فيقول محمد إقبال:

أَرْوَاحُنَا -يَا رَبِّ- فَوْقَ أَكُفِّنَا ... نَرْجُو ثَوَابَكَ مَغْنَماً وَجِوَارَا

يقول: ما أردنا المال، ما جمعنا القصور والدور، بل نريد الجوار عند الله الواحد الأحد. فآسيا صارت مثلاً للمسلمين تقول: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]. فهنا يقول هو:

كُنَّا نُقَدِّمُ لِلسُّيُوفِ رُؤُوسَنَا ... لَمْ نَخْشَ يَوْماً غَاشِماً جَبَّارَا

كُنَّا نَرَى الأَصْنَامَ مِنْ ذَهَبٍ ... فَنَهْدِمُهَا وَنَهْدِمُ فَوْقَهَا الْكُفَّارَا

لأنه يوم وصل القائد المسلم العسكري بلاد الهند، مرَّ بألف ألف مقاتل، أي: مليون. يفتح بلاد الهند، فجاء ملك الهند، وقال: أريد أن أتصالح معك. قال: وما الصلح؟. قال: أريد أن أعطيك هذه الأصنام من ذهب كلها ودعنا في أرضنا. قال: أي: آخذ الفدية وأترككم على الكفر؟. قال: نعم. قال: حتى يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا مشتري الأصنام. بل أكسرها وأكسر رؤوسكم عليها؛ حتى يقول الله: يا مكسر الأصنام. فراغ عليهم ضرباً باليمين، قال:

لَوْ كَانَ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ لَحَازَ ... كَنْزاً وَصَاغَ الْحُلْيَ وَالدِّينَارَا

يقـول: لو كنا غير مسلمين لرضينا مـا عرض الملك، لكن عندنا رسالة أتينا لإنقاذ الناس، أتينا لبناء دولة العدل في العالم، أتينا لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

هـذا هو محمد إقبـال، هذا الإبداع هـذا الشاعر الفيلسـوف الحكيم، وكان يحمـل الدكتوراه العالمية في الأدب والفلسفة، عاشـ ردحاً من حياته في ألمانيا، يقـول: كان أبي رجلاً صالحـاً دخل علي وأنا أقرأ القرآن وعنـدي أختي الصغيرة ألاعبهـا وأقرأ في المصحف، فقال أبوه: يـا محمد، اقرأ القرآن كأنه أُنْزِل عليك. فقـال: فهزَّنِي بهـذه الكلمة، وبعدها كلما قـرأت القرآن أبكـي. لأن الواحد الأحد يخاطبـك أنـت من فوق سبع سماوات، من نحن حتى يخاطبنا الله ويرسل لنا هذا الكتاب مع هذا الرسول العظيم؟ لكن أكرمنا الله بهذا الكتاب.

فانظر كيف تربى على هذا القرآن، صحيح أنه ليس بعالم شرعي، لكنه شاعر، لكنه على كل مستوى العالم، وجعل كل قصائده وكل رسائله خدمة للإسلام.

obeikandl.com

النهاية

لكل شيء نهاية، ولكل أمر انقضاء، ولكل حياة موت، والنهاية لا بد أن نقبلها وهي نهاية لهذه الحياة، وقد عبر عنها الحكماء والشعراء والفلاسفة كلٌّ على طريقته، وأفصح من ذلك وأعظم قول الباري ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. لأن كفار قريش كانوا يتربصون بالرسول ﷺ الدوائر ويقولون: اتركوه سوف يموت. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. إلا أن العواقب تختلف عند الباري ﷻ فهي النهاية. ﴿وَلَا تَدْعُ

مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

الشاعر ابن عثيمين يرثي العجيلي العالم يقول:

هُوَ الْمَوْتُ مَا مِنْهُ مَلاذٌ وَمَهْرَبُ ... مَتَى حُطَّ ذَا عَلَى النَّاسِ ذَاكَ يَرْكَبُ

نُؤَمِّلُ آمَالاً وَنَرْجُو نَتَاجَهَا ... لَعَلَّ الرَّدى مِمَّا نُرَجِّيهِ أَقْرَبُ

وَنَبْنِي الْقُصُورَ الْمُشْمَخِرَّاتِ فِي الْهَوَى ... وَفِي عِلْمِنَا أَنَّا نَمُوتُ وَتَخْرَبُ

إِلَى اللهِ نَشْكُو قَسْوَةً فِي قُلُوبِنَا ... وَفِي كُلِّ يَوْمٍ وَاعِظُ الْمَوْتِ يَنْدُبُ

عش ما شئت، فإنك ميت وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، ليست الخسارة أن يهدم قصر أو تُهدَم دار أو يُحرق مال، الخسارة أن يموت رجل شهم، إما عالم نافع نفع الله به أو سلطان عادل أو منفق كريم أو رجل عابد نفع الله بدعائه الأمة، يقول:

لَعَمْرُكَ مَا الرَّزِيَّةُ فَقْدُ مَالٍ ... وَلا شَاةٌ تَمُوتُ وَلا بَعِيرُ

وَلَكِنَّ الرَّزِيَّةَ فَقْدُ شَهْمٍ ... يَمُوتُ لِمَوْتِهِ بَشَرٌ كَثِيرُ

هذه هي أعظم الرزايا التي تمر بالناس، وهي مصائب كبرى يتحملها الناس، ولذلك فإن بعض الناس إذا مات، فكأن القبيلة أو الأمة ماتت؛ لما جعل الله ﷻ له من التأثير، حتى يقول أحد القادة يرثي:

مَنْ كَانَ مُغْتَبِطاً بِمَقْتَلِ مَالِكٍ ... فَلْيَأْتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارِ

يَجِدِ النِّسَاءَ حَوَاسِراً يَنْدُبْنَهُ ... فِي الْفَجْرِ عِنْدَ تَبَلُّدِ الأَسْحَارِ

يقول: إن كنتم مغتبطين فانظروا إلى البيوت وماذا حصل فيها. ولما مات خالد بن الوليد رضي الله عنه بكت النساء وارتفع العويل، فأتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتأثر فقال الرجل: ألا تسكت النساء يا أمير المؤمنين؟ قال: «دَعْهُمْ، عَلَى مِثْلِ

أَبِي سُلَيْمَانَ فَلْتَبْكِ الْبَوَاكِي». مات على الفراش وهو خاض مئة معركة ما كُسرت له راية ولا فرَّ ولا انهزم، قال: «لَقَد شَارَكْتُ فِي مِئَةِ مَعْرَكَةٍ، مَا فِي جِسْمِي مَوْطِنُ شِبْرٍ إلاَّ فِيهِ ضَرْبَةٌ بِسَيْفٍ أَوْ طَعْنَةٌ بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةٌ بِسَهْمٍ، وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي كَمَا يَمُوتُ الْبَعِيرُ، فَلا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَاءِ». فلما خرجوا به قالت أخته فاطمة وهو على النعش:

أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ أَلْفٍ مِنَ الْقَوْمِ ... إِذَا مَا كَبَتْ وُجُوهُ الرِّجَالِ
وَمُهِينٌ لِلنَّفْسِ الْعَزِيزَةِ بِالذِّكْرِ ... إِذَا مَا الْتَقَتْ صُدُورُ الْعَوَالِي

فكلٌّ يرثي على طريقته. وإن أحسن ما أبدع فيه العرب هو الرثاء، حتى تقول الخنساء -رحمها الله- في أخيها صخر:

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرَاً ... وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غِيَابِ شَمْسِ
وَلَوْلا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكِينَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

تقول: إني أراهم يبكون على القتلى، لكن ليسوا كصخر، فصخر شيء آخر. سطَّرت فيه أحسن الملاحم.

ولما ماتت أخت سيف الدولة رثاها المتنبي، يقول:

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ ... كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ
طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبَرٌ ... فَزِعْتُ فِيهِ بِآمَالِي إِلَى الْكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِي صِدْقُهُ كَذِبَاً ... شَرِقْتُ بِالدَّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرَقُ بِي

والصاحب بن عباد كان عدواً للمتنبي، وكان وزيراً من أشهر الوزراء، لكنه كان يكره المتنبي حسداً وكانا متعاصرين، وكان المتنبي لا يمدح إلا الملوك، أما

الوزراء فلا، وربما مدحهم، لكن رفض أن يمدح الصاحب بن عباد، فوقع بينهما ما وقع من خلاف، فقال الصاحب بن عباد لأهل إمرته وولايته: لا تستشهدوا بشعر المتنبي أبداً. فلما ماتت أخت الصاحب بن عباد أتته ستون رسالة من أمراء الأقاليم ببيتين للمتنبي قالهما في أخت سيف الدولة، وكلما فتح رسالة، وإذا في أولها:

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبَرٌ ... فَزِعْتُ فِيهِ بِآمَالِي إِلَى الْكَذِبِ

حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِي صِدْقُهُ كَذِباً ... شَرِقْتُ بِالدَّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرَقُ بِي

قال: هذا رجل أصبح مثل الشمس، أَنْشِدُوا أشعاره.

وكان المتنبي يريد أن يذهب إلى عضد الدولة في شيراز، وفي طريقه الصاحب بن عباد، يمر به، فلا بد من أن يعطيه قذيفة من قصائده ثم يمضي، وكان في الطريق قاضٍ، والمتنبي يريد أن يُعرِّض بالصاحب بن عباد، فيقول:

لَوِ اسْتَطَعْتُ رَكِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمُ ... إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بُعْرَانَا

فَالْعِيسُ أَعْقَلُ مِنْ قَوْمٍ رَأَيْتُهُمُ ... عَمَا رَآهُ مِنَ الإِحْسَانِ عُمْيَانَا

عَبْدٌ فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي ... فَلا أُعَاتِبُهُ صَفْحاً وَإِهْوَانَا

كَذَاكَ قَدْ كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي ... إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا

مُحَسَّدُ الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِهْ ... يُغْتَابُ سِراً وَيُثْنَى فِيهِ إِعْلانَا

فالجواد إذا حضر مدحه الناس، وإذا غاب اغتابوه، وهذا هو السيد. قيل للأحنف بن قيس: من هو السيد؟ قال: مَنْ إذا قدِم هابوه، وإذا أدبر اغتابوه. والناس لا ترمي إلا الشجر المثمر.

وأذكر من قصص الموت وقصص الرثاء أبياتاً في رثاء الحسين بن علي رضي الله عنه وإنا لله وإنا إليه راجعون، يقول ابن تيمية: ينبغي لكل مسلم إذا ذكر قاتل الحسين

أن يترجع ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. فإنها مصيبة من أعظم المصائب، فأحسن الله عزاءنا في مصيبة قتل الحسين بن علي، فلما قُتِلَ كبر وهلل أحد الجهلة ممن قتلوه، فقال الشاعر:

جَاؤُوا بِرَأْسِكَ يَا ابْنَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ ... مُتَزَمِّلاً بِدِمَائِهِ تَزْمِيلا

وَيُكَبِّرُونَ بِأَنْ قُتِلْتَ وَإِنَّمَا ... قَتَلُوا بِكَ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلا

فأصل التكبير والتهليل خرج من بيت الرسول ﷺ.

وصاحب الحماسة أبو تمام له مراثٍ، ومن مراثيه لما قُتِلَ أحد الأعيان قوله:

أَلا إِنَّ عَيْنَاً لَمْ تَجُدْ يَوْمَ وَاسِطٍ ... عَلَيْكَ بِغَالِي دَمْعِهَا لَجَمُودُ

إذا ما بكت العين في المناسبة، فمتى؟!

يقول أبو الطيب في محمد بن حميد:

كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأَمْرُ ... فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

فإذا لم تدمع العين على الأخيار والأبرار والصلحاء وأشباههم، فعلى من تبكي؟ هؤلاء هم الذي يستحقون أن يُبْكَى عليهم، ولكن ربما يتصبر الإنسان، ثم لا يستطيع أمام الحدث الذي أمامه، ولذلك قال جرير لما ماتت زوجته:

لَوْلا الْحَيَاءُ لَهَاجَنِي اسْتِعْبَارُ ... وَلَزُرْتُ قَبْرَكِ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ

وَلَقَدْ نَظَرْتُ وَمَا تَمَتَّعَ نَظْرَةٌ ... فِي الْقَبْرِ حَيْثُ تَمَكَّنَ الإِحْفَارُ

فيقول: ما استطعت أن أكتم شجوني ولا دموعي وآهاتي ولا زفراتي على تلك الصحبة، فاندفعت باكياً.

ومن أحسن قصائد ابن الرومي الجيمية المطربة المنعشة، رثى فيها خديد ابن عمر من ذرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قتله العباسيون، خرج عليهم في ثورة وقتلوه، وكان ابن الرومي متشيعاً من أهل البيت، قال:

أَمَامَكَ فَانْظُرْ أَيَّ نَهْجَيْكَ تَنْهَجُ ... طَرِيقَانِ شَتَّى مُسْتَقِيمٌ وَأَعْوَجُ

أَبِيتُ إذا نَامَ الخَلِيُّ كأنما ... تَبِطَّنَ أجفاني سَيَالٌ وعَوْسَجُ

أيحيى العُلَى لَهَفِي بِمَثْوَاكَ لَهْفَةً ... يُبَاشِرُ مَكْوَاهَا الفُؤَادُ فَتَنْضُجُ

بنفسي وإن فات الفداءُ بك الردى ... محاسنُك اللائي تُمَحُّ فَتُنْهَجُ

إلى أن يقول:

مَتَى تَسْتَعِيدُ الأَرْضُ ثَوْبَ جَمَالِهَا ... فَتَبْرُزُ فِي أَثْوَابِهَا تَتَبَهْرَجُ

يقول: انتهت زهرة الدنيا وانتهى بهاؤها ومات الحسن معك فما عاد الاستقرار فيها.

عَفَاءٌ عَلَى دُنْيَا رَحَلْتَ لِغَيْرِهَا ... فَلَيْسَ بِهَا لِلصَّالِحِينَ مُعَرَّجُ

أَلَا أَيُّهَا المُسْتَبْشِرُونَ بِيَوْمِهِ ... أَظَلَّتْ عَلَيْكُم غُمَّةٌ لا تُفَرَّجُ

أَكُلُّكُمُ أَمْسَى اطْمَأَنَّ مِهَادُه ... بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ فِي القَبْرِ مُزْعَجُ

فَلَا تَشْمَتُوا وَلْيَخْسَإِ المرءُ مِنْكُمُ ... بِوَجْهٍ كَأَنَّ اللَّونَ مِنهُ الْيَرَنْدَجُ

فَلَو شَهِدَ الهَيجَا بِقَلْبِ أَبِيكُمُ ... غَدَاةَ التَقَى الجَمْعَانِ والخَيْلُ تَمْعَجُ

لأعطى يَدَ العانِي أَوِ ارمَدَّ هَارِباً ... كَمَا ارْمَدَّ بِالقَاعِ الظَّلِيمُ المُهَيَّجُ

وَلَكِنَّهُ مَا زَالَ يَغشَى بِنَحرِه ... شَبَا الحَرْبِ حَتَّى قَالَ ذُو الجَهلِ أَهْوَجُ

كَأَنِّي بِهِ كَاللَّيثِ يَحمِي عَرِينَه ... وأَشبالَهُ لا يَزْدَهِيهِ المُهَجْهِجُ

يَكِرُّ عَلَى أَعْدَائِهِ كَرَّ ثَائِرٍ ... وَيَطعَنُهُم سُلْكَى وَلا يَتَخَلَّجُ

كَدَأْبِ عَلِيٍّ فِي المَوَاطِنِ كُلِّهَا ... أَبِي حَسَنٍ وَالْغُصْنُ مِنْ حَيْثُ يَخرُجُ

يقـول: جدك عليٌّ قُتِل والحسين قُتِلُ، كلكـم على هذا الطريق. ثم يقول: إنك مع الغصن كالشجرة المباركة. حتى يقول يهدد بني العباس:

سَيُصْغِي لَكُمْ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ نَاصِرٌ وَلله أَوْسٌ آخَـرُون وَخَـزْرَجُ

وهـي أكثر من ثمانيـن بيتاً، وهي من أحسن قصائد ابـن الرومي. وهذا إذا شـاء أن يرسل الحرف أرسله، فهو صاحب الكلمـات المشهورة، حتى إنه مات لما سمـه عبيد الله بن الوزيـر لأنه هجاه، فعندها استدعاه للغـداء ورحب به وقال له الطبيـب: دسّ له السـم ودعه يمت، ففعل، فلمـا أحس ابن الرومـي بالسم عرف أن عبيـد الله سمـه فذهب إلى بيت الخلاء (دورة الميـاه) قال: أين تذهب يا ابن الرومي؟ قال: إلى المكان الذي أرسلتني إليه. فيقول في الطريق:

غَلَطَ الطَّبِيبُ عَلَيَّ غَلْطَةَ مَوْرِدٍ صَـارَتْ مَـوَارِدُهَـا مَـعَ الأَصْـلابِ

وأذكر من أمهات المراثي قصيدة دريد بن الصمة القشيري يرثي أخاه عبد الله، فبنـو عارض قبيلة دريد وأخيه تواعدوا مـع قوم، فقال لأخيه: لا تقم دونهم. أي: إن الأعداء أكثر، فهم نحو ألفين ونحن قليل ما يقرب من مئتين إلى أربع مئة، فرفضـ رأي دريد؛ إذ كان شجاعاً مقداماً، لكن الرأي كان مع دريد، وخرجوا لهم وخرج أخوه معهم، ولما دارت المعركة وأولئك أكثر قُتِل أخوه عبد الله، فاتل دريد معه، حتى سقط معه جريحاً، فرفعا كلاهما عند أمهما؛ هذا مقتول وهذا مجروح، فقالت: ما أخباركما يا دريد؟ فقال:

أَعاذِلَ مَهلاً بَعضُ لَومِكِ وَاقصِدي وَإِن كانَ عِلمُ الغَيبِ عِندَكِ فَارْشِدي

وَقُلتُ لِعارِضٍ وَأَصْحَابِ عارِضٍ وَرَهطِ بَنِي السَّوداءِ وَالقَومُ شُهَّدِي

عَلانِيَةً ظُنّوا بِأَلْفَي مُدَجَّجٍ سَراتُهُمُ في الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ

وَقُلْتُ لَهُم: إِنَّ الأَحالِيفَ أَصْبَحَتْ مُطَنَّبَةً بَيْنَ السِّتَارِ فَثَهْمَدِ

فَما فَتِئُوا حَتّى رَأَوْهَا مُغِيرَةً ... كَرِجْلِ الدَّبى فِي كُلِّ رَبْعٍ وَفَدْفَدِ
وَلَمّا رَأَيْتُ الخَيْلَ قُبْلاً كَأَنَّها ... جَرَادٌ يُبارِي وِجْهَةَ الرِّيحِ مُعْتَدِي

يقول: سوف يأتيكم القوم بألفي مسلح، معهم من الخناجر والسيوف والدروع الكثير. فما صدقوني، حتى رأوها عياناً.

أَمَرْتُهُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرِجِ اللِّوَى ... فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الأَمْرَ إلاَّ ضُحَى الْغَدِ

منعرج اللوى: مكان.

وَهَلْ أَنَا إلاَّ مِنْ غُزَيَّةَ إنْ غَوتْ ... غَوَيْتُ وَإنْ تَرْشُدْ غُزَيَّةُ أَرْشُدِ
دَعَانِي أَخِي وَالْخَيْلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ... فَلَمَّا دَعَانِي لَمْ يَجِدْنِي بِقَعْدَدِ
أَخِي أَرْضَعَتْنِي أُمُّهُ بِلِبانِها ... بِثَدْيٍ صَفَاءٍ بَيْنَنا لَمْ يُقَدَّدِ

يقول: سمع صوت أخيه: يا دريد. لأنهم رشقوه بالرماح وكان بطلاً فصاح بأخيه لما أحس بضرب الرماح من كل جهة، فأتى وإذا الخيل بينه وبينه، فلما دعاني ما إن سمعت صوته، حتى هببت كالأسد الكاسر:

فَجِئْتُ إِلَيْهِ وَالرِّماحُ تَنُوشُهُ ... كَوَقْعِ الصَّيَاصِيِّ فِي النَّسِيجِ الْمُمَدَّدِ
وَكُنْتُ كَذَاتِ الْبَوِّ رِيعَتْ فَأَقْبَلَتْ ... إِلى جَلَدٍ مِنْ مَسْكِ سَقْبٍ مُقَدَّدِ
فَطَاعَنْتُ عَنْهُ الْخَيْلَ حَتَّى تَبَدَّدَتْ ... وَحَتَّى عَلانِي حالِكُ اللَّوْنِ أَسْوَدِ
فَما رِمْتُ حَتّى خَرَّقَتْنِي رِماحُهُم ... وَغودِرتُ أَكْبُو فِي القَنا المُتَقَصِّدِ

يقول: فأخذت أضرب الخيل وأطعنها؛ لأفتح طريقاً، وأصل إلى أخي، وصارت ثيابي كلها حمراء من كثرة الطعن من كل جهة.

قِتالُ امْرِئٍ آسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ ... وَيَعْلَمُ إنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

تَنادُوا فَقالوا أَرْدَتِ الخَيلُ فارِساً ... فَقُلْتُ: أَعَبدُ اللهِ ذَلِكُمُ الرَّدِي

فَإِنْ يَكُ عَبْدُ اللهِ خَلّى مَكانَهُ ... فَما كانَ وَقّافاً وَلا طائِشَ اليَدِ

وَلا بَرِماً إِذا الرِّياحُ تَناوَحَتْ ... بِرَطْبِ العِضاهِ وَالهَشِيمِ المُعَضَّدِ

قَليلٌ تَشَكّيهِ المُصيباتِ حافِظٌ ... مِنَ اليَومِ أَعْقابَ الأَحادِيثِ في غَدِ

فيقول: وقفت على أخي وإذا هو مُصَرّع، فقال: والله إني صُرعت معه وطُعِنْتُ معه، وأمه تبكي، وهو يعلمها ويخبرها.

أَخِي أَرْضَعَتْنِي أُمُّهُ بِلِبانِها ... بِثَدْيٍ صَفاءٍ بَيْنَنا لَم يُقَدَّدِ

وحاتم كان له أخ، وكان أخوه بخيلاً، وحاتم أكرم الناس، فقال أخوه: أنا أكرم منك. قالت أمه: كذبت. قال: لماذا؟ قالت: حاتم أكرم منك وهو طفل. قال: كيف؟ قالت: حاتم كان يرضع مع ابن فلانة الذي ماتت أمه، فإذا رفع اليتيم عن ثديي رفع حاتم عن الثدي، وإذا رضع رضعَ معه، فلا يرضع إلا معه، وأنت كنت ترضع معه، فإذا رضع هو بكيت أنت. فوصفته بالبخل.

وَخَفَّفَ وَجْدِي أَنَّنِي لَمْ أَقُلْ لَهُ: ... كَذَبْتَ وَلَمْ أَبْخَلْ بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

فَإِن تُعْقِبِ الأَيّامُ وَالدَّهْرُ تَعْلَمُوا ... بَنِي قَارِبٍ أَنّا غِضابٌ بِمَعْبَدِ

فيقول: إن الذي عزاني أني ما قلت لأخي مرة في الحياة: كذبت. ولا بخلت عليه بشيء.

obeikandl.com

الشعر والزهد

سجل الشعراء حكمهم في الدنيا، بعد أن جربوا وعرفوا فناء هذه الدنيا؛ لأن الماشي فيها يغتر، كما يقول المتنبي:

تَحْلُو الْحَيَاةُ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ
عَمَّا مَضَى مِنْهَا وَمَا يَتَوَقَّعُ

وَلِمَنْ يُغَالِطُ فِي الْحَقَائِقِ نَفْسَهُ
وَيَسُومُهَا طَلَبَ الْمُحَالِ فَتَقْنَعُ

فيقول: لا ينخدع في الحياة الدنيا إلا الجاهل، مثل الشاب الذي ما جرَّب، لكن تجد

الحكماء والشيوخ الكبار ومن شاب وأصبح ذا معرفة وجاءته موجعات من الدنيا ومات أصحابه، وينظر كيف تتغير، وإذا الأغنياء يفتقرون، وإذا الحوادث تحصل، حتى يقول أحدهم:

وَمَنْ كَمُلَتْ فِيهِ النُّهَى لا يَسُرُّهُ نَعِيمٌ وَلا يَرْتَاعُ لِلْحَدَثَانِ

فهم سجلوا هذه الخبرات، حتى المتنبي يقول:

لَحَى اللهُ ذَي الدُّنْيَا مُنَاخاً لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدِ الْهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ

فتجد صاحب الهمة معذباً في الدنيا، فلذلك أوصى القرآن بالزهد في الدنيا ﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦] ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. لكن ليس المقصود منها أن تضيع أموالك، وألا تستخدمها في طاعة الله، بل المقصود أن تجعلها في يدك لا في قلبك، وأن تستعين بها على طاعة الله، وألا تمنع الحقوق التي وجبت عليك، وألا تبخل بالمعروف بين الناس، وإلا فقد كان في الصحابة ﷺ أغنياء وأسخياء يجودون بالمال، فينبغي أن يعرف الإنسان ذلك، كقوله ﷺ في صحيح البخاري لابن عمر رضي الله عنه: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**».

فأكثر الشعراء أصدروا حكمة في هذا الباب، ومنهم عمران بن حطان شاعر خارجي، لكنه من أقوى الشعراء شعراً، له كلمة لاغية وإنه كان على مذهب الخوارج الذين أيدوا قتل علي رضي الله عنه أبي الحسن أمير المؤمنين، حتى لما قتله عبد الرحمن ابن ملجم يقول عمران بن حطان:

يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا ... إِلاَّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانَا
إِنِّي لَأَذْكُرُهُ يَوْمَاً فَأَحْسَبُهُ ... مِنْ خَيْرِ خَلْقِ عِبَادِ اللهِ مِيزَانَا

فردَّ عليه شاعر السنة، فقال:

يَا ضَرْبَةً مِنْ شَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا ... إِلاَّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ خُسْرَانَا
إِنِّي لَأَذْكُرُهُ يَوْمَاً وَأَلْعَنُهُ ... وَأَلْعَنُ الْكَلْبَ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانَ

وعمران يقول في حكمة له عن الدنيا:

أَرَى أَشْقِيَاءَ النَّاسِ لا يَسْأَمُونَهَا ... عَلَى أَنَّهُمْ فِيهَا عُرَاةٌ وَجُوَّعُ
أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ تَسُرُّ فَإِنَّهَا ... سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ

يقول: الأغبياء دائماً مغرورون بالدنيا. فيغتر أحدهم باللباس ويغتر بالسيارة وبالمنصب ويفرح بالوظيفة، هي غرور كلعبة الأطفال، وهي مسرحية ولكنك لو فكرت بعقل لسألت: أين الملوك؟ وأين الدول؟ أين الذين كانوا معنا وازدانت بهم المجالس؟ أين شبابهم وأنسهم؟ أصبحوا أخباراً، فكل الشعراء يتواصون بذلك، وكان أحدهم يقول:

خُذِ الْقَنَاعَةَ مِنْ دُنْيَاكَ وَارْضَ بِهَا ... لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلاَّ رَاحَةُ الْبَدَنِ
وَانْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا ... هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الطِّيبِ وَالْكَفَنِ

هل رأيتم تاجراً كبيراً ذهب بأرصدته وسياراته وبالمليارات؟ لا، يذهب مجرداً بالطيب والكفن، وعند الترمذي يقول ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ آمِنَاً فِي سِرْبِهِ، مُعَافَىً فِي بَدَنِهِ، عِنْدَهُ قُوتُهُ وَقُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا**».
ولذلك يقول أحد الزهاد:

الْجُوعُ يُدْفَعُ بِالرَّغِيفِ الْيَابِسِ فَعَلامَ أُكْثِرُ حَسْرَتِي وَوَسَاوِسِي؟!

خبزة تشبع، وكأنك أغنى الناس، تشرب ماء وتنام على الحصير، هذه هي الدنيا، حتى يقول ابن فارس النحوي:

مَاءٌ وَخُبْزٌ وَظِلٌّ ذَاكَ النَّعِيمُ الأَجَلُّ
كَفَرْتُ نِعْمَةَ رَبِّي إِنْ قُلْتُ: إِنِّي مُقِلُّ

عندك خبز وعندك ماء وعندك حصير تنام عليه فأنت ملك.

يقول أحدهم:

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِ مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ قَرَارِ
طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْوَاً مِنَ الأَقْذَاءِ وَالأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارِ
دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا أَبْكَتْ غَدَاً قُبْحَاً لَهَا مِنْ دَارِ
مَا زَادَ فَوْقَ الزَّادِ خُلِّفَ ضَائِعاً فِي وَارِثٍ أَوْ نَاجِمٍ أَوْ عَارِ

هذه الحياة الدنيا، فينبغي أن تأخذ هذه الحكم وتكسبها في حياتك من أناس جربوا العلم وشعر الحكمة، صاحب الحكمة أخذها عن علم ومعرفة، فلا بد من أن تستفيد أنت وتستثمرها في حياتك، وفي قصيدة لي قلت:

دُنْيَاكَ تَزْهُو ولا تَدْرِي بِمَا فِيهَا إِيَّاكَ إِيَّاكَ لا تَأْمَنْ عَوَادِيهَا
تَحْلُو الْحَيَاةُ لأَجْيَالٍ فَتُنْعِشُهُمْ وَيُدْرِكُ الْمَوْتُ أَجْيَالاً فَيُفْنِيهَا
عَارِيَةُ الْمَالِ قَدْ رُدَّتْ لِصَاحِبِهَا وَأَكْذُبُ الْبَيْتِ قَدْ عَادَتْ لِبَانِيهَا
يَا رَبِّ، نَفْسِي كَبَتْ مِمَّا أَلَمَّ بِهَا فَزَكِّهَا- يَا كَرِيمُ- أَنْتَ هَادِيهَا

هَامَتْ إِلَيْكَ فَلَمَّا أُجْهِدَتْ تَعَبَاً ... رَنَتْ إِلَيْكَ فَحَدَّتْ قَبْلَ حَادِيهَا

إِذَا تَشَكَّتْ كَلالَ السَّيْلِ أَسْعَفَهَا ... شَوْقُ الْقُدُومِ فَتُدْنِي فِي تَدَانِيهَا

فحالة الدنيا أنها لا يغتر بها إلا كل مخدوع.

المهدي الخليفة العباسي ابن أبي جعفر المنصور كان في الليل يسمر، وجاءه وشاة السوء وجلساء السوء وقالوا: إن فلان بن موسى- أحد أهل البيت من ذرية علي بن طالب رضي الله عنه كان عابداً زاهداً ناسكاً يصلي في الليل- يخطط لقلب نظامك وأخذ الملك. فأخذ العسس والشرطة وقال: اقتحموا عليه في منزله واقتادوه في النور. وأتوا وإذا هو على سجادته مستقبل القبلة ودموعه قد بللت لحيته، وهو يقرأ القرآن، فأخذوه إلى المهدي، فلما دخل المهدي قال: سمعنا أنك تريد ملكنا وخلافتنا. قال: والله لا يرضيني إلا ملك في جنات النعيم؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]. والله ما فكرت في الليل والنهار، والله ما سألت ملكك في سر ولا علانية. ثم أنشده قصيدة عن الملوك وعن الخلفاء:

بَاتُوا عَلَى قَوْلِ أَذْبَالٍ وَتَحْرُسُهُمْ ... غُلْبُ الرِّجَالِ فَمَا أَغْنَتْهُمُ الْقُلَلُ

وَاسْتُنْزِلُوا بَعْدَ عِزٍّ مِنْ مَنَازِلِهِمْ ... إِلَى مَقَابِرِهِمْ يَا بِئْسَ مَا نَزَلُوا!

كَانَتْ أَسِرَّتُهُمْ تُرْوَى وَأَحْقِيَةٌ ... مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الأَسْتَارُ وَالْكَلَلُ

أَضْحَتْ ضَعِيفَةً عِنْدَ الضِّيقِ رَاكِعَةً ... فِيهَا وَمِنْهَا عَلَيْهَا الدُّودُ يَقْتَتِلُ

فبكى المهدي، حتى كادت أضلاعه تختلف، وقال: سامحني، روّعناك في هذه الليلة. وطلب منه السماح وردّه إلى سجّادته وعبادته، فهذه حال الدنيا، حتى يقول أبو البقاء الرندي:

أَيْنَ الْمُلُوكُ ذَوُو التِّيجَانِ مِنْ يَمَنٍ ... وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلٌ وَتِيجَانُ

وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شَدَّادُ فِي إِرَمٍ ... وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ فِي الْفُرْسِ سَاسَانُ

أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرٌ لا عَزَاءَ لَهُ ... حَتَّى قَضَوا فَكَأَنَّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا

أيـن من شاد، ومن ساد؟ أيـن من ولى وعزل؟ أين من أخذ؟ أين من أعطى؟ أين من أهدى؟ أين الجحافل؟ أين الجنود؟ أين البنود؟ أين الأعلام؟ وأين أقواس النصـر والابتهاجات والاحتفالات؟! كأنها حلـم رأيتها في منامك، ثم استيقظت، وهـي لا شيء، فما هـو المطلـب؟ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

ابن تيمية دُعِي إلى السلطان السلجوقي في دمشق، قال ابن تيمية: يقول الناس: إنـك تريد ملكنـا. قال: ملكك أنـت؟! والله ما ملكك وملك آبائـك وأجدادك يساوي عندي فلساً؟ قال: ولم؟ قال: أريد جنة عرضها السموات والأرض. لأن الله ﷻ ذكر في الجنة: خلود بلا موت، شباب بلا هرم، صحة بلا سقم، أمن بلا خوف، غنى بلا فقـر، يوم ينادي المنـادي: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلا تَسْقَمُوا أَبَـدَاً، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلا تَهْرَمُوا أَبَدَاً». ولذلك قال الشاعر:

فَاعْمَلْ لِدَارٍ غَدَاً رِضْوَانُ خَازِنُهَا ... الْجَارُ أَحْمَدُ وَالرَّحْمَنُ بَانِيهَا

وَسُورُهَا ذَهَبٌ وَالْمِسْكُ تُرْبَتُهَا ... وَالزَّعْفَرَانُ حَشِيشٌ نَابِتٌ فِيهَا

فتسبيحة تغرس لك شجرة، وتسبيحة تبني لك لبنة، لبنة من فضة ولبنة من ذهـب، وأقل منازل أهل الدنيا في الجنة عشرة أمثـال الدنيا، فاعمل لتلك الدار، وخذ الحكمة من الشعراء الذين عرفوا هذه الدار وعرفوا مصيرها وعرفوا نهايتها ونطقوا بها وأنها فانية وأنها منقضية، وأنها أحلام نائم، يستيقظ المرء فلا يجد

عنده شيئاً، ولذلك كانوا يعظون، حتى إن الواسطي وعظ نور الدين محمود، فقال:

مَثِّلْ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا الْمَغْرُورُ.

ونور الدين محمود زنكي هذا من العدول وكان الخليفة السادس من الخلفاء الراشدين، بعد عمر بن عبد العزيز وكان مَثَلاً في العدل والإيمان والتقوى، حتى مدحه مؤرخ الإسلام الذهبي وابن كثير والعلماء، وأطنب العلماء على ذكره، وطلب من الله الشهادة فرزقه الشهادة، وكان يقوم الثلث الأخير من الليل وكان يحكم الشام والجزيرة ومصر واليمن والعراق وهو تركماني؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. الإسلام ليس حِكْرًا على أحد، فالذي ينصر الإسلام يتفضل مأجوراً ومشكوراً، بلال بن رباح نصر الإسلام وهو مولى حبشي فدخل الجنة، وأبو لهب الهاشمي القرشي دخل النار.

ولذلك يقول الواسطي يعظ نور الدين، وذلك يوم مهرجان كبير، فأراد أن يعظ في يوم لا أحد يستطيع أن يرده، فيأتي يوم المهرجان ومعه عصا قديمة وهو شيخ كبير مهيب. يقول أحد السلاطين: والله إني رأيت الأسد في الغابة ورأيت البحر إذا هاج وإني ما خفت مثلما خفت من الواسطي. فيقدم في المهرجان وهم يلقون فقرات الحفل فيقطع الحفل ويدخل، وينتصف في المنصة ويقول لنور الدين محمود وهو فوق المنصة جالس والناس والأمراء والوزراء والجيوش أمامه وخلفه، فقال:

مَثِّلْ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا الْمَغْرُورُ ... يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُورُ

فَإِنْ قِيلَ: نُورُ الدِّينِ جَاءَ مُسَلِّماً ... فَاحْذَرْ بِأَنْ تَأْتِي وَمَا لَكَ نُورُ

ونور الدين محمود حرَّم الخمر، فلا يُبَاع في دولته كلها، لكن بعض الحاشية قد يرتشون، وسمع ذاك، فقال:

حَرَّمْتَ كَاسَاتِ الْمُدَامِ تَعَفُّفاً ... وَعَلَيْكَ كَاسَاتُ الْحَرَامِ تَدُورُ

يَوْمَاً تَشِيبُ لِهَوْلِهِ الْوِلْدَانُ مِنْ ... فَزَعٍ وَيَأْكُلُ كَفَّهُ الْمَثْبُورُ

هَذَا بِلا ذَنْبٍ يَخَافُ لِهَوْلِهِ ... كَيْفَ الَّذِي مَرَّتْ عَلَيْهِ دُهُورُ

يقول: الطفل يخاف ويشيب ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]. فكيف الذي مرت عليه دهور؟! وكان نور الدين يسمع ويتحرك ويرتفع عنده الضغط ويغمى عليه ويسقط من على الكرسي أمام الناس، ورشه الناس وأجلسوه وقطعوا الحفل.

هذه حال الدنيا، فحري بنا الانتهاء عن غينا، فأنصح الشباب أن يقرؤوا الحكمة وأن يطالعوا الكتب، وأنا كنت مثلهم، كنت أعجب من الحفلات والمهرجانات، وإذا رأيت القصور والدور والحدائق قلت: ما هذا النعيم؟ يا لحظّهم يا لقرة عيونهم! ولما قرأت القرآن والحديث ومعانيه وكلام الحكماء وكلام المجربين والشعراء وإذا الدنيا مسرحية وحلم في المنام، ونرى الرجل الزعيم يذهب ثم يُدس في التراب، ثم يعود الناس كلهم والحاشية والمواكب وقد نسوه، ويذهب العالم الكبير وكأنه ما درّس وما ألف وما علّم، والغني يُجرَّد من كل شيء.

وقد عزّيت في تاجر كبير، عنده سبع شركات أي: عنده مليارات، جُرِّد من ملابسه وجرِّد من أشيائه ودخل قبره وحيداً ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]. وهذا منهج القرآن، فهل ذهب أحد بشيء؟!

الشعر والزهد

الشاهد أن الشعر يرسل رسائل من الزهد لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وشعر الحكمة يشارك نصوص الكتاب ونصوص السنة، فكان على الإنسان ألا يغتر ولا ينخدع، فأنا لا أدعو للتقشف المزري في مثل هذا، بل أدعو للزهد الصحيح على منهج الكتاب والسنة منهج محمد ﷺ.

obeikandl.com

obeikandl.com

البخل

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧]. وقال ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

البخيل مذموم في الدنيا والآخرة ومذموم في الأرض وفي السماء ويكرهه كل أحد، والبخل خلق

ذميم، حتى إن البخيل تظهر معائبه مضخمة عند الناس، فلا يقبلون له عذراً ولا يرحبون به ولا يفرحون بقدومه، والبخل يكون بطلاقة الوجه والبخل بالمال والبخل بالطعام والبخل بالضيافة والبخل بالجاه، والشعراء أخذوا هذا الجانب بالتهكم بالبخلاء، ومنهم الحطيئة في الزبرقان الذي كان عاملاً لعمر رضي الله عنه على الصدقات، والزبرقان فيه خير بلا شك، لكنه غاب عن ضيافة الحطيئة، فخلفه الحطيئة عند أسرته وما ضيفوه، فأطلق أبياتاً في الزبرقان يقول فيها:

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغيَتِهَا ... وَاقْعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

وهذا من القصيدة التي يقول فيها:

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ ... لاَ يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ والنَّاسِ

فشكاه الزبرقان عند عمر رضي الله عنه فاشترى عمر منه أعراض الناس بعدما حبسه، ثم أطلقه بعدما تعهد له ألا يعود، والشاهد في الباب أنه بوابة عظيمة للتهكم.

وأحد العلماء مر برجل اسمه عثمان، وكان عثمان مشهوراً بالبخل وكان عنده مقهى، فقال: أريد كأس شاي. فقال: لم نصنع اليوم شيئاً. لأنه يبيع بيعاً ويعلم أن الشيخ لا يملك الثمن. قال: نريد ماء على الأقل. قال: حتى الماء ما وضعناه في البرادة. فقال:

المَاءُ في بَيْتِ عُثمَانٍ لَهُ ثَمَنٌ ... وَالشَّايُ يَا صَاحِ، لا يُسْقَى لإنسَانِ

فَاتْفُلْ عَلَى كُلِّ عُثمانٍ تُلاَقِيهِ ... إلا الخَلِيفَةَ عُثمَانَ بْنَ عَفَّانِ

حتى إن المتنبي يلوم كافورًا فيقول:

جَوعَانُ يأكُلُ من زَادِي وَيَحبِسُنِي ... لِكَي يُقَالَ: عَظِيمُ القَدْرِ مَقْصُودُ

يقول: هو حبسني في مصر، فهو يأكل من عيشتي ما أعطاني شيئاً، ويقول:

جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الأَيْدِي وَجُودُهُمُ ... مِنَ اللِّسَانِ فَلاَ كَانُوا وَلا الْجُودُ

التي مطلعها:

عِيدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عُدْتَ يَا عِيدُ ... بِمَا مَضَى أَمْ لأَمْرٍ فِيكَ تَجْدِيْدُ

يقول: إن كافور جوعان يأكل من معيشتي ويمنعني من السفر؛ كي يقال: إني قصدته في مصر وإنه عظيم القدر مقصود، وإنما جوده مواعيد فقط باللسان. فبعض الناس يعدك ويمنيك الأماني، لكن إذا أتيت إلى الحقائق، فلا تظفر منه بشيء، حتى إن بعضهم يبخل على نفسه في لباسه وفي طعامه وفي إنفاقه.

فينبغي للإنسان أن يحتاط من هذا، ويكون سخياً جواداً، وليعلم أن من أفضل صفات سيد الخلق ﷺ الكرم، الذي ما سُمِع بأكرم منه ﷺ حتى يقول جابر رضي الله عنه: «مَا قَالَ ﷺ: لا. أبداً».

اللئيم يُعرف بعلامات، منها أنه يكتئب إذا دخل الضيف عنده، ومنها أنه يُغلق عليه الكلام ولا يستطيع أن يتكلم، ومنها أن يشتد ويغضب من أبنائه فيصيح عليهم ويدعو عليهم بالويل والثبور، ومنها أنه يضخم المسألة، فإذا ذبح شاة أو خروفاً بدأ يخبرك كيف هذا وهذا الوادي وماذا نعمل بالمال إذا ما أكرمنا وحق علينا، ويقول: لا بارك الله في دنيانا إذا ما أكرمنا. ويخبرك متى كان ميلاد هذا، حتى إنهم يقولون: إذا رأيت الرجل يدخل بسكين، ويخرج فاعلم أنه بخيل. لأن إبراهيم عليه السلام لما أتاه الملائكة قال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات: ٢٦]، حتى يقول الشاعر:

أُحَادِثُ ضَيفِي قَبلَ إِنزَالِ رَحلِه ... وَيُخصِبُ عِندِي وَالمَكَانُ جَدِيبُ

وَمَا الخِصْبُ لِلأَضْيَافِ أَنْ يكثر القِرَى ... وَلَكِنَّمَا وَجهُ الكَرِيمِ خَصِيبُ

أذكر أن الشاعر المشهور حميد الدوسري له قصيدة شعبية عارضتها بقصيدة ثانية، يقول في أحد البخلاء:

الله لا يبقي على الأرض من الرديان أحد — والله لا يرحم مثاويك يا النذل البخيل

فقلت أنا:

يبرق البارق إذا جيت ويرعد الرعد — وارضنا تبهج لمقدمك والشاخص يميل
الله من قلب على نغمتك قام وقعد — كن قولك منهل بارد من سلسبيل
أو كما ألعاب خود على المبســـم برد — ضاع فيهم مسك والطعم طعم الزنجبيل
جعل عين تنضلك في لونها فيها الرمد — وجعل قلب مايحبك يقطع بالصقيل
وش بعد تبغى نحدثك عنا وش بعد — اقصر الهتوات تكفى ترى المسرى طويل
الله من علم وشعر بصدري له زبد — هايج ومايج يهيج على دجله ونيل
كل ماقمت احبسه ياقصيدي هدهدْ — قام يضربني بعجر موا ناجسمي نحيل

الشاهد في هذا أن البخيل يسرع إليه الذم واللوم من الناس، حتى إنهم دخلوا على بخيل، فقام البخيل يعتذر ويكلم ابنه ويأتي ويذهب وما قدم شيئاً لا طعام ولا غيره، قال أحدهم:

يَا قَائِماً فِي بَيتِهِ قَاعِداً — مِنْ غَيرِ مَا مَعنًى وَلاَ فَائِدَةْ
قَدْ مَاتَ أضيَافُكَ مِن جُوعِهِمْ — فَاقْرَأْ عَلَيهِم سُورَةَ المَائِدَةْ

لأن المائدة هي الطعام، يقول: ائتِ لنا بطعام.

والجاحظ ألف كتاباً في ذلك والخطيب البغدادي كذلك، حتى إن كتابه يأخذ بالألباب من بلاغته، وقد يبالغ ويأتي بأشياء، لكن أصل القصص موجودة في طبائع الناس.

فمنهم من يقول: من أبخل الناس أهل مرو. فهؤلاء إذا أتيت أحدهم في الليل سألك: هل تناولت وجبة العشاء؟ فتقول: نعم. فيقول: ليتك ما تعشيت؛ لتشاركنا

في عشائنا. فإن قلت: لا، أنا جوعان. قالوا: لو أنك تعشيت لشربت معنا من العصير. فلا شربت العصير ولا تعشيت معهم، وهذه من حيلهم.

يقولون: إن أبا الأسود الدؤلي كان مشهوراً بالبخل، حتى جاءه غريب مرة فدخل البيت بلا إذن، أي: غفل هو عن الباب. فإنه كان متحفظاً ومتحرزاً ويغلق الباب وليس عنده جرس عند الباب ولا يكتب اسمه ويتخفى، فأبو الأسود غفل ونسي الباب فدخل رجل من الغرباء المسافرين المنقطعين فوجد المائدة قد صُفَّت فجلس وأكل معهم، فلما أكل قال: في أمان الله، أستودعكم الله. قال: إلى أين؟ قال: أريد أن أذهب. قال: أكلت عشاءنا وتريد أن تذهب وتخيف أناساً غيرنا؟ والله لا تذهب وأتركك تؤذي عباد الله؟ فشده بحبل بيده ورجله وربطه بالباب وقال: حتى لا تؤذي عباد الله.

ومن ذلك الجاحظ يقول: جلس أحد البخلاء على مائدة فقدموا الجدي، فانطلق أحد الضيوف على الجدي فأزال جنبه الأيمن ثم على الأيسر ثم ظهره، وصاحب البيت يتميز من الغيظ، تحطم وانتهى وغاظ، قال: أراك صاحب عداوة، كأن أم هذا نطحتك فتريد أن تنتقم منها. قال: والله إني رأيت شفقتك عليه كأن أمه أرضعتك.

فلا تكن هذا ولا هذا، بل خير الهدي هديه ﷺ بأن يقدم الإنسان الموجود ولا يتكلف المفقود، لكن بسط الوجه والحديث الطيب والترحيب أحسن من القِرَى أحياناً، فماذا تريد من إنسان يقدم لك الخروف، لكنه مغضب ووجهه عبوس وجبينه مقطب ولا يتحدث لك؟ إن من أدب الضيافة أن تتحدث مع ضيفك، فلما أتى وفد عامر قيس إلى النبي ﷺ يسأله كما في صحيح مسلم قال: «**مَنِ الْوَفْدُ؟**». فأخبروه فقال: «**مَرْحَبَاً بِالْوَفْدِ...**». وأخذ يحدِّثهم ﷺ حتى يأنسوا.

ويستنبط بعض المفسرين من قصة موسى عليه السلام لما قال له ربه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]. والله هو الذي خلق موسى وخلق العصى عز وجل، يعلم

السر وأخفى، قال: المقصود من ذلك أنه من باب الإيناس. لأن موسى عليه السلام اندفع يتكلم: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]. فإذا نزل بك الضيف تحادثه وتسأله عن أخباره وعن الأمطار في بلده وعن أبنائه، وعن عشيرته، فيرتاح قلبه وينشرح صدره ويأنس معك.

وفد شاعر إلى يزيد بن حاتم الأزدي وكان مشغولاً وإلا فهو كريم، فذهب من عنده ووصل إلى رجل اسمه يزيد بن حاتم القيسي، وهما أميران، لكن الأزدي هذا من كرماء العرب والقيسي من بخلاء العرب، فردّه القيسي فيقول في أبيات له:

أَرَانِـي- وَلاَ كُفْـرَانَ للهِ- رَاجِـعاً ... بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ مِنْ ذَوَالِ ابْنِ حَاتِمِ

فسمع يزيد بن حاتم فقال: إليّ به. فأتي به، فقال: اخلع خفيك الاثنين، فملأهما ذهباً، فقال في القصيدة يكملها؛ لأن يزيد ذا كيسي، فقال:

أَرَانِـي- وَلاَ كُفْـرَانَ للهِ- رَاجِـعاً ... بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ مِنْ ذَوَالِ ابْنِ حَاتِمِ
لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ اليَزِيْدَيْنِ فِي النَّدَى ... يَزِيدَ بن عَمرٍو وَالأَغرِّ ابْنِ حَاتِمِ
فَهَمُّ الفَتَى الأَزْدِي إِتلافُ مَالِهِ ... وَهَمُّ الفَتَى القَيسِيِّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
فلا يَحسَبِ التَّمتَامُ أَنِّي هَجَوتُهُ ... وَلَكِنَّنِي فَضَّلتُ أَهلَ المَكَارِمِ

وقصة المثل أن رجلاً مغفلاً من العرب، ذهب بناقته، وفي الطريق رآه حنين الذي كان مستتراً، فقال حنين: سوف أخدعه. فوضع إحدى خفيه في الطريق، فرآها الرجل الأعرابي، فقال: لو كان معها أخرى لأخذتها، فتركها، فلما مشى قليلاً وجد الخف الثانية، فقال: هذه وهذه. فنزل وربط الناقة وأخذ الخف ومشى؛ ليأخذ الثانية، فأخذ حنين ناقته، فرجع بخفي حنين، فصار مثلاً.

وجملة (وَلاَ كُفْـرَانَ للهِ) احترازية، مثل: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٢٢].

فقوله: (تخرج بيضاء) فهي قد تخرج بيضاء، لكن من بهق أو برص لكن قال: (من غير سوء)؛ أي: ليس فيها بلاء ولا برص ولا مرض. فهذا هو الذي دل عليه؛ لأن البخل مذموم، وعلى الإنسان أن يقرأ سير الأجواد والصالحين الذين بذلوا أموالهم وأعطوا كحاتم الطائي، وهذا في الجاهلية، أما سيد الأجواد في الجاهلية وفي الإسلام وما قبل وما بعد والأحمر والأصفر والأسود، فهو سيد الخلق ﷺ فهو أجود الناس ﷺ لا يُسْأَلُ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ.

obeikandl.com

الفراقيات

يقول أبو الطيب المتنبي:

حُشَاشَةَ نَفْس وَدَّعْتُ يَومَ وَدَّعُوا

فَلَمْ أَدرِ أَيَّ الظَّاعِنِينَ أُشَيِّعُ

معنى البيت: يقول: بقيت بقية من نفسي، الحشاشة: البقية، فقبل الفراق ما كان عندي إلا بقية من نفسي، وودعت هذه البقية يوم ودع أصحابي وارتحلوا عني، فما أدري أي الظاعنين المرتحلين المسافرين أشيع، ما أدري أأودع نفسي وأشيعها التي ذهبت وارتحلت يوم ارتحل

أصحابي وأحبابي أم أشيع أصحابي؟ فأصبحت في أمر مريج وأصبحت مرتبكاً، أأودع النفس التي خرجت من بين جنبيّ يوم خرج أحبابي أم أودع أحبابي؟ وهذا من بلاغته، وهذا البيت يعدّ من أجمل الأبيات، وله في الفراقيات كلام عجيب، حتى يقول:

فُراقٌ ومَنْ فَارَقْتُ غَيْرَ مُذَمَّمِ

عندما خرج من عند سيف الدولة إلى كافور، وهذه آخر قصيدة قالها، يقول:

لا أذم سيف الدولة، لكن ظروفاً حصلت وأتت أمور ودخل بيننا وبينه حساد أبعدوني عنه، وإلا فالرجل لا أستطيع مفارقته، يقول:

فُرَاقٌ ومَنْ فَارَقْتُ غَيْرَ مُذَمَّمِ وَأَمْ وَمَنْ يَمَّمْتُ غَيْرَ مُيَمَّمِ

يقول: سأذهب إلى كافور ومثله لا يقصد.

وَمَا مَنْزِلُ اللذَّاتِ عِندي بِمَنزِلٍ إِذَا لَمْ أُبَجَّلْ عِندَهُ وأُكَرَّمِ

سَجِيَّةُ نَفْسٍ مَا تَزَالُ مَلِيحَةً عَنِ الضَّيمِ مَرمِيّاً بِهَا كُلَّ مَخرَمِ

ثم يقول في الفراق:

رَحَلتُ فَكَمْ بَاكٍ بِأَجْفَانِ شَادِنٍ عَلَيَّ وَكَمْ بَاكٍ بِأَجْفَانِ ضَيغَمِ

يقول: بكى علي الرجال والنساء، وهذا من الوهم عنده، وهم العظمة.

وَمَا رَبَّةُ القِرطِ المَليحِ مَكَانَةً بِأَجْزَعَ مِنْ رَبِّ الحُسَامِ المُصَمِّمِ

يقول: حتى صاحبة القرط تبكي وسيف الدولة صاحب الحسام يبكي، يقول: قلاني سيف الدولة. أطاع فيّ الحساد. رماني وأنا أريد أن أرميه وأعيد الرمية له فأنتقم منه، لكن ماذا أفعل؟ فعنده قوة وملك، فأنا أريد أن أرد عليه الرمي.

رَمَى واتَّقَى رَمْيِي ومِن دُونِ مَا اتَّقَى هَوَى كاسِرٍ كَفِّي وَقَوسِي وَأَسْهُمِي

يقول: إن له هوى في قلبي، أنا أحبه وأجله، وهذا الحب يكسر قوسي ويدي وأسهمي.

إِذَا سَاءَ فِعلُ المَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُه ... وَصَـدَّقَ مَـا يَعـتَـادُهُ مِـنْ تَـوَهُّـمِ

وَعَـادَى مُحِبِّيـهِ بِقَـولِ وُشَـاتِـهِ ... فَأَصْبَحَ فِي شَكٍّ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمِ

وهو يقول في الفراق:

إِذَا تَرَحَّلتَ عَنْ قَومٍ وَقَدْ قَدِرُوا ... أَلاَّ تُـفَـارِقَـهُـمْ فَـالـرَّاحِـلُـونَ هُـمُ

فتجده في الرحيل عاطفياً دائماً، وتجده يذوب رقة خلاف قصائده الحماسية القويـة في الهمـة والشجاعة، وهذا شأن العبقرية، فإنها تتـدرج مع صاحبها مثل الزئبـق في الإناء، والله سبحانه هو الذي يعطي المواهب جل في علاه، فتجده في الفراقيـات يكاد ينخلع قلبك وأنت تقرأ هـذه الفراقيات، وقد أبدع العرب أبدع ما أبدعـوا في الفراقيات، حتـى يقول ابن زيدون في قصيدته الأخاذة التي يقول ابن كثير: ما قرأها رجل إلا هيجته على البكاء.

أَضحَى التنائي بديلاً مِنْ تدانينا ... ونـابَ عـنْ طيبِ لُقيانا تَجَافِينا

بِنْتم وبِنَّا فما ابتلَّتْ جوانحُنا ... شـوقاً إلـيْكُم ولا جفَّتْ مآقِينا

تكادُ حينَ تناجِيكم ضمائرُنا ... يقضِي علينا الأَسَى لَولا تأسِّينا

وله قصيدة أخرى يقول فيها:

ودِّع الـصـبـرَ مـحـبٌّ ودَّعَـكْ ... ذائـعٌ مِـنْ سـرِّه مـا اسْـتـودعَكْ

يـا أَخَـا الـبـدرِ سـنـاءً وسـنَـا ... رحِـمَ اللهُ زمـانـاً أطـلـعَـكْ

إنْ يـطـلْ لـيـلُك بـعـدي فلقدْ ... كـدتُ أشـكُو قِصَـرَ الـلـيـلِ معَكْ

وكان المحبـون يشكـون مـن قصر الليـل مع أحبابهـم، ومن طـول الليل إذا فقدوهم، حتى يقول خالد بن يزيد بن معاوية:

لا أسألُ اللهَ تغييراً لما فعلَتْ ... نامتْ وقد أسهرَتْ عينيَّ عَيناها

فالليلُ أطولُ شيءٍ حينَ أفقدُها ... والليلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألقاها

وهذا من أجمل القصائد.

وأحدهم صاغ جناساً في هذا الباب، فقال:

ليلِي وليلَى نفى نومُ اختلافِهما ... في الطُّولِ والطَّولِ طوبانٌ أو اعتدلاَ

يجودُ بالطُّولِ ليلِي كلَّما بخلَتْ ... بالطَّولِ ليلَى وإنْ جادَتْ بهِ بَخِلاَ

وهذا الجناس لا يستطيعه إلا عباقرة من الشعراء، فيجمعون بين هذا الكلام وإن كان فيه تكلف، فالمتنبي سبقهم في بعض المعاني، لكن كل العرب أجادوا في الفراقيات، ولذلك فقصيدة ابن زريق في الفراق من أحسن ما قيل، والتي منها يقول:

أستودعُ اللهَ في بغدادَ لي قَمَراً ... بالكرخِ من فلكِ الأزهارِ مطلعه ودعته

وَدَّعْتُه وبودِّي لو يودِّعُني ... صفوُ الحياةِ وأنِّي لا أودعُه

معنى البيت: يقول: ودعت حبيبي وليت صفو الحياة ودعني أنا وفارقني، وأني ما فارقت هذا الحبيب، وقصيدة ابن زيدون هي من أجمل القصائد وهي من عيون الشعر، وإنما قالها في الفراق لما ترك أهله وقد جاء من الأندلس إلى بغداد فجاء بهذا، حتى يقول أحد المعاصرين:

وكانَ صوتُ الفراقياتِ نسمعُهُ ... فلا نُحسُّ بكاءً منه يُبكينا

حتَّى أصاخَ لسانُ الدهرِ مُرتجِلاً ... أضحَى التنائي بديلاً منْ تدانينا

فضمن بيت ابن زيدون هذا.

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يودع أصحابه يقول: «**أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**»، وكان يقول في بعض الأحاديث: «**أستودعكم الله الذي**

لا تضيع ودائعه»، فهو أحسن من ودع عليه الصلاة والسلام، حتى إنه ودع عبد الله ابن رواحة فبكى عبد الله بن رواحة، وقال للرسول ﷺ وقد كان شاعراً رضي الله عنه:

ألـفُ السـلامِ علـى امـرئٍ ودّعتُـه ... فِـي النـخلِ خيـرِ مُـودِّعٍ وخلـيلِ

يقـول: السلام والصـلاة على خير خليل وخيـر صاحب وخير إمـام وأفضل إنسـان سيد الخلق ﷺ، وذهـب ابن رواحة ليصب دمه في سبيل الله في مؤتة في الأردن رضي الله عنه وأرضاه، وكان من الشهداء الكبار.

فالشاهـد أنـه ﷺ كان يعلـم أصحابـه كيف يودعهـم وكيـف يودعونه عليه الصلاة والسلام.

ومرة أتاه أعرابي كما في سنن الترمذي، فقال: «يا رسول الله، إني أريد سفراً فزودنـي» الأعرابي على الناقة يريد السفـر، يريد طعاماً.. تمراً.. دقيقاً.. زبيباً.. ورسـول الله ﷺ لا يملـك في ذلك الوقت شيئاً، كانت تمـر على النبي ﷺ أوقات لا يجـد فيها شيئـاً، وأحياناً يأتيه ما أعطاه الله من المـال والغنائم فيعطي، قال: فحالـه ﷺ على أحسن من ذلك، قـال: فزودني، فقال ﷺ: «**زودك الله التقوى**» فاستملـح الأعرابي واستعـذب هذا الكلام، قال: «**زدني، قـال: وغفر ذنبك، قال: زدني، قال: ويسر لك الخير حيثما كنت**» فصارت أحسن من الدنيا وما فيها.

وفي الترمذي أن عمر رضي الله عنه أراد أن يعتمر، فاستأذن النبي ﷺ فقال له ﷺ: «**لا تنسنا من دعائك يا أخي**» سيد الخلق ﷺ صاحب المقام المحمود يقول لعمر وهو حسنة من حسنات الرسول ﷺ: «**لا تنسنا من دعائك يا أخي**» قال عمر وهو يتذكرهـا بعد وفاته ﷺ ويبكي، يتذكر هذه الكلمة: محمد ﷺ يقول لك: يا أخي، فقال عمر: «قال كلمة ما أريد أن لي بها الدنيا وما فيها»، يقول: والله لا أريد بهذه الكلمـة الدنيا كلها، فمن قالها أشرف وأطهر وأحسن وأحلى فم وأصدق فم، نطق بها سيد الخلق ﷺ، يقول لعمر: يا أخي، فهو يتذكر ويبكي.

فكان المتنبي مبدعاً في هذا الباب، فيأتيك بمعانٍ لا تدري من أين أتى بها، ثم إنه يجدد ولا يكرر ما قال، يجدد في المطالع ويجدد في الطرح ويجدد في أغراض القصيد، وأحياناً يجعل في القصيدة ثلاثين غرضاً، فهو لا يتقيد بالوحدة الموضوعية، كما يفعل بعض الشعراء، إنما يسهب ذات اليمين وذات الشمال، فيبدع في كل باب، حتى إنك لو أخذت بيتاً من أبياته لكان علماً بارزاً وصار مشهداً مؤثراً ولوحة هائمة في الحسن وحدها، ولذلك فالأبيات السائرة في الناس هي أبيات أبي الطيب هذا الشاعر الأسطورة.

وإلا فقد سبق كثير من الشعراء المتنبي، لكن منهم من أجاد في الفراقيات ومنهم من سار عادياً. وجرير من أحسن ما قاله في الفراق وفي الشباب وفي الرثاء قوله:

يا أمَّ ناجيةَ السلامُ عليكمُ ... قبلَ الرحيلِ وقبلَ لومِ العُذَّلِ

لو كنتُ أعلمُ أنَّ آخرَ عهدِكم ... قبلَ الرحيلِ فعلتُ ما لَمْ أفعلِ

قالوا: ماذا تفعل؟ قال: أقتل نفسي. هذا من كلام الشعراء، وإلا فلن يقتل نفسه ولن يجرح نفسه، لكنه كذب.

فأبياته مؤثرة في الفراقيات، حتى إنه يقول -وأريدك أن تقف لحظة مع هذا البيت وجمالياته وهو يسيل رقة وعذوبة وفصاحة وأثراً وجاذبية وسحراً حلالاً-:

ذمَّ المنازلَ بعدَ منزلةِ اللوى ... والعيشَ بعدَ أولئكَ الأيامِ

يقول: عشنا مع أناس من الأحباب في ديارهم وفي خيامهم، يقول: كلما أنزل بعدها ديراً أذمها، لا ترحب بتلك الأيام بغير منازلهم. فلم يعد للعيش طعم بعد أولئك الملأ الذين عشنا معهم، حتى يقول لبيد في أصحاب رافقوه وأناس نزل فيهم:

ذهبَ الذينَ يُعاشُ في أكنافِهم ... وبقيتُ في خلفٍ كجلدِ الأجربِ

يقول: كنت صاحبت أناساً عشنا في أكنافهم وفي كرمهم وفي سعة خواطرهم وعذوبة أخلاقهم، ثم تخلفت في ناس مثل جلد الأجرب، إن أخطأت أمسكوا الخطأ وإن أحسنت دفنوه، فهم مثل جلد الأجرب مبعثر مشقق، وهذا كلٌّ يشتكي من زمانه.

قالت عائشة مستشهدة بهذا البيت كما في الصحيح: «يقول لبيد»:

ذهبَ الذينَ يُعاشُ في أكنافِهم وبقيتُ في خلْفٍ كجلدِ الأجْرَبِ

كيف لو رأى زماننا لبيد؟» فأتى عروة ونقل عن عائشة قال: كيف لو رأت عائشة زماننا؟! فأتى هشام بن عروة فقال: كيف لو رأى عروة زماننا؟! فأتى الزهري راوي البيت فقال: كيف لو رأى هشام زماننا؟! إلى أن نقله عشرة رواة. وأقول أنا: كيف لو رأوا زماننا؟

فكما قال القائل: «كلما أتى زمان كان الذي قبله أحسن منه، حتى تلقوا ربكم» قاله أنس عن سيد الخلق ﷺ، وكما جاء في الحديث الآخر: «**خيرُ القرونِ قرني ثمَّ الذينَ يلونَهم ثمَّ الذينَ يلونَهم**» حديث صحيح.

لكن أحياناً يأتي أفراد في القرن المتأخر أحسن من بعض الأفراد في القرن المتقدم، لكن في جملة الناس القرن المتقدم أكثر خيرية، ففي كل عام وفي كل سنة يرذل الناس وتضعف مواهب الناس وخير الناس وإمكانيات الناس، حتى نلقى ربنا.

ومن أحسن ما قيل في الفراقيات قول متمم بن نويرة في أخيه مالك، يقول بعدما قتل أخوه مالك:

وكنَّا كندمانَي جذيمةَ برهةً مِنَ الدهرِ حتَّى قيلَ لنْ يتصدَّعَا

وعشْنَا بخيرٍ في الحياةِ وقبلَنا أصابَ المنايا رهطَ كِسْرى و تُبَّعَا

فلمَّا تفرقْنا كأنِّي ومالكاً لطولِ اجتماعٍ لم نبتْ ليلةً معَا

أقرأتم مثل هذا السحر الحلال؟!

يقول متمم بن نويرة وكان له أخ اسمه مالك بن نويرة قتل، فرثاه متمم برثاء مفجع، حتى إن عمر رضي الله عنه كان إذا دخل عليه متمم قال: «ما بلغ من حزنك على أخيك يا متمم؟! قال: والله يا أمير المؤمنين، إني بكيت عليه حتى بكت عيني العوراء» وكان عنده عين مصابة، بكت وهي جافة يابسة، لكن من كثرة البكاء بكت الصحيحة، حتى أبكت أختها العوراء، كما قال الأول:

بكتْ عينِي اليمنَى فلمَّا زجرتُها ... عنِ الجهلِ بعدَ الحلمِ أسبلتَا معَا

يقول: نصحت عيني اليمنى، كأنه يقول لها: انظري إلى العين اليسرى العاقلة لا تبكي مثلك، فأنت ماذا حصل لك! لا تبكي، قال: فلم أمكث حتى بكت اليسرى كأختها.

مثلما يقول الأعور السلمي لما فقد ولده، بكى بكى، وكان له عين صحيحة وأخرى مريضة، فقال:

بكيتُ بعينٍ ليسَ فيها غضاضةٌ ... وعينٍ بهَا ريبٌ منَ الحَدَثَانِ

مريضة، مصابة من الحوادث.

عذيرُكِ يا عينِي الصحيحةَ بالبُكَا ... فمَا لكِ يا عوراءُ والهَمَلان

يقول: عذرناك أيتها العين الصحيحة، عندما تبكين؛ لأنك تستطيعين البكاء، ولكن ما الذي دفعك للبكاء أيتها العين المصابة العوراء؟ وهذا أيضاً من أجمل الأبيات.

وهناك السعد الشيرازي شاعر إيراني عالمي له ديوان، وذهبت إلى طهران قبل مدة؛ لآخذ هذا الديوان، وهو عندي، من أجمل الأبيات، يقول:

بكتْ عينِي غداةَ البينِ دمعاً ... وأخرى بالبُكَا بخلَتْ علينَا

فعاقبتُ التِي بالدمعِ ضنتْ ... بأنْ أغمضتُها يوم التقَينا

يقول: إن إحدى عيني بكت يوم ودعت أصحابي، والعين الثانية لم تبكِ، وعندما عدنا للسلام على الأصحاب بعد سنة أغمضت العين التي لم تبكِ؛ لكي لا ترى؛ لأنها لم تساعدنا بالبكاء قبل.

وله مقطوعة أخرى يقول فيها:

ما مرَّ منْ طيفِ الهوَى بمسمعِي ... لو سمعتُ وُرْقَ الحِمَى ناحتْ معِي

يَا معشرَ الخلانِ قولوا للمُعافَى: ... لستَ تدري ما بقلبِ المُوجَعِ

وبيت:

بكتْ عينِي اليمنَى فلمَّا زجرتُها ... عنِ الجهلِ بعدَ الحِلْمِ أسبلتَا معَا

للصمة الكسيري، من قصيدة يقول فيها:

بنفسِي تلكَ الأرضُ ما أطيبَ الرُّبَى! ... وما أحسنَ المصطافَ والمُتَربَّعا!

فالمتنبي له في الفراقيات أبيات أخرى يقول من ضمنها:

يَا مَنْ نُعِيتُ علَى بُعدٍ بمجلسِه ... كلٌّ بما زعمَ الناعُونَ مُرْتهَنُ

فيرى أنهم كرهوه بعد الفراق، ما وفوا له، يعني: ما ذكروا عهده الجميل وصحبته؛ لأن بعض الناس إذا وقع بينك وبينه شجار أو نزاع ترك تلك الصحبة الجميلة ونسي ذاك الوفاء والأيام الخالدة، يقول: سمعتم بلاغاً أني مت، فسررتم وفرحتم، وسوف تموتون مثلما أموت، وهل في الموت شماتة؟!

أيُّها الشامتُ المعيرُ بالدهرِ ... أأنتَ المبرَّأُ المَوفُورُ

يعني: ألن تموت؟! فيقول:

يَا مَنْ نُعِيتُ علَى بُعْدٍ بمجلسِهِ ... كلٌّ بما زعمَ النَّاعونَ مرتهنُ

يَاكَمْ قُتلتُ ويا كَمْ مِتُّ عندكُمُ ... ثمَّ انتفضْتُ فزالَ القبرُ والكفنُ

وهي من قصيدته البديعة الذائعة التي يقول فيها:

بِمَ التعلُّلُ لا أهلٌ ولا سكنُ ... ولا نديمٌ ولا خلٌّ ولا وطنُ

أريدُ مِنْ زمنِي ذا أن يُبلِّغَني ... مَا ليسَ يبلغُه مِنْ نفسِه الزَّمَنُ

إلى أن يقول:

مِمَّا أضرَّ بأهلِ العشقِ أنَّهُمُ ... هَوُوا وما عرَفُوا الدُّنيا ومَا فَطِنُوا

يقول: يعشقون الدنيا وهم في الحقيقة لم يعرفوا الدنيا، لمَ يعشقونها؟ فهي غدارة.. غرارة.. مكارة.. وهي كلما رفع الإنسان علامات، فإذا علا مات، وهي تصبح بحال وتمسي بحال، وفيها فراق وفيها مرض وفيها فقر، إلى أن يقول:

تفنَى نفوسُهُمُ شوقاً وأدمعُهُمْ ... في إثرِ كلِّ قبيح وجهُهُ حسنُ

تحمَّلُوا حِمْلَكم فِي كلِّ ناجِيةٍ ... فكلُّ بينٍ عليَّ اليومَ مُرْتَهنُ

سهرتُ بعدَ رحيلِي وحشةً لكُمُ ... ثمَّ استمرَ مريرِي وارعوَى الوَسَنُ

يقول: عندما فارقتموني سهرت ليالي وبكيت عليكم، ثم نسيت شيئاً فشيئاً، حتى عاد إليّ النوم وبدأت أعود كما كنت، والحمد لله.

وأكثر الناس على هذا المنوال، يفقد الوالد ولده فيقول: والله بعدك ما أذوق النوم، فيمر وقت يسير يسلو.

وتجد الشاب يموت أبوه فتجده يقول: لم أعد أرتاح في هذه الحياة بعد والدي، والدي زينة البيت، والله ليس لها طعم بعد والدي، لا أبنائي ولا حياتي، ويظل يبكي، وبعد أيام وأشهر ينسى أباه.

فلا يغررك كلام الناس، ولذلك ترى في أبيات المتنبي عمق الدلالة، ترى فيها من العبقرية أنه يصل إلى المعاني، حتى يقول الشوكاني في بعض رسائله: فلا إله إلا الله ما أدق نظره! ولا إله إلا الله ما أقوى حكمه! عنده دراسة عجيبة لنفسية الإنسان؛ لأن عبقريته أوصلته إلى هذا النفوذ.

لا تلقَ دهرَكَ إلا غيرَ مكترثٍ ... ما دامَ يصحبُ فيهِ روحَك البدنُ

فما يديمُ سروراً ما سررتَ بهِ ... ولا يردُّ عليكَ الغائبَ الحزنُ

يقـول: لا تكترث بشيء ولا يهمك شيء، فالدنيا كلها أوهام في أوهام، إذا لم تفـرح فقل: إنـا لله وإنا إليه راجعون، سوف نموت جميعـاً، لا تفرح بما أوتيت، ولا تجـزع إذا أدبرت، فالدنيا كلهـا زائلة، ونحن في مسرحية اسمهـا الحياة الدنيا، فـإذا سررت فلا يدوم السرور، كم عمر السـرور؟! تسر بزوجة.. بابن.. بنجاح.. بمال.. بثروة.. بمنصب.. ثم أيام معدودة فينقلب الحال، ولا تدوم، ولا يرد عليك الغائـب الحزن، تحزن على إنسان، هل سيرد الحزن الغائب عليك، هل سمعتم أن الحزن رد ميتاً أو أعاد ثروة ذهبت، فيقول:

مـا كلُّ مـا يتمنَى المـرءُ يـدرِكُه تجرِي الرياحُ بما لا تشتهِي السفنُ

هذا بيت الباقعة هنا أتى به في هذه القصيدة، وإنما ذكرته؛ لأنه في قصيدته هذه اللامعة التي سطع بها نجمه مع قصائده الأخرى.

والمتنبـي استخدم في قصائـده طرابلس، طرابلس التي فـي الشام وليست التي في ليبيا، يقول المتنبي:

أكارمُ حسدَ الأرضَ السماءُ بهمْ وقصرتْ كلُّ مصرٍ عنْ طرابلسِ

يقـول: إنكم في طرابلس، حتى السماء حسدت الأرض لأنكم في الأرض، وكل مدينة في العالم حسدت طرابلس؛ لأنكم أنتم في طرابلس، يعني بني عبيد الله.

يفدِي بنيكَ عَبِيد الله حاسِدكم بجبهةِ العيرِ يفدِى حافرَ الفرسِ

إلى أن يقول فيها:

لـو كـانَ جـودُ يـديـهِ جـودَ غـاديـةٍ عزَّ القطا فِي الفيافِي مَوضِعَ اليبسِ

يقـول: لـو كانت يده مثل الغيمة فـي الكرم لكانت صبت ماءهـا حتى ما تجد القطـاة وهـي تمشي في الأرض مكانـاً يابساً، فهذا مـن دقته فـي المعنى، وهو يرسـم بريشته، يرسم لوحة هائمة بالحسن، ويلاحق معك الحرف، ثم يصور لك المشهد، ويسلمه لك جاهزاً، وما عليك إلا أن تتدبر ما يريد أن يصل إليه.

فأتى شاعر آخر فنظم على القافية فقال:

أحبابَنا إنْ بعدتُم عنْ زيارتِنا ... أنَّا بمصْرَ وأنْتمْ فِي طرابلسِ

وسار على نفس النسق، وذكر ياقوت الحموي مدينة طرابلس، فأتى بقصيدة أبي الطيب الرائعة البديعة، وأتى بهذه القصيدة.

وإنما قلت الفراقيات؛ لأن العلماء والشعراء والعقلاء أجمعوا على أنه لا قرار في هذه الحياة وعلى أن الإنسان سوف يرتحل من هذه الدنيا.

وإذَا أتَتْكَ مِنْ البلاءِ بليَّةٌ ... فاذكُرْ مصابَكَ بِالنَّبِيِّ محمَّدِ

فما بعد موت النبي ﷺ يجزع على ميت، وما هناك مصيبة أعظم من مصيبتنا في النبي ﷺ، ولذلك كتب الله الفراق على هذه الدار: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

وإنما آتي بالشعراء خاصة هذا المتنبي؛ لأننا نهتم بأدبه موقفاً موقفاً ومشهداً مشهداً، موقفه من المديح ومن الفخر ومن الكرم وفي الحب وفي الرثاء وفي الوصف وفي ذكر الديار والمعاهد وفي الحكمة.. ونحو ذلك.

وجدناه في هذا الباب مبدعاً، حتى إنه غلب كثيراً من الشعراء في الفراقيات.

ولكن بعض النقاد والحساد يأتي ببعض الأبيات الرخيصة وينبه عليها؛ ليبين ضعف المتنبي، يقول محمود شاكر صاحب كتاب المتنبي: إن هذا الرخيص من أبياته أظهر عظمته في الأبيات الأخرى، مثل الحطب بجانب الجوهر والدرر، فلا بد من هذه الأبيات الضعيفة؛ لتقوم عبقريته وعظمته في أبياته.

فهذا المتنبي مثل ذلك، وإلا فله أبيات أخذت عليه، مثل قوله:

فقلقلتُ بالهمِّ الذي قلقلَ الحشَى قلاقلَ عيسٍ كلهنَّ قلاقلُ

فلو لم يأتِ بهذا البيت وارتاح لكان أراحنا وأراح نفسه. ومثل هذ البيت قوله:

فحمدانُ حمدونٌ وحمدانُ راشدٌ وراشد لقمانٌ ولقمانُ حارثُ

يقول: أنت مثل أبيك، وأبوك مثل جدك، وجدك مثل أبي جدك، وجد أبي جدك مثل جد جد جده..!

وهذه العبقرية لا بد لها من فلتات وعثرات، فللعبقرية فلتات وتشققات، ولها كبوات، حتى إن أبا تمام وهو مبدع- لكن أبا الطيب يعلو عليه، فأبو الطيب ملك الشعراء وحامل ناصية الأدب وحامل ناصية الحكمة، لكن أبا تمام يأتي بعده- له أشياء عجيبة من الحكم، لكن لامه العلماء في التكلف أحياناً، حتى إنه سهر في خراسان ليلة من الليالي؛ ليأتينا ببيت، قالوا: ليته نام تلك الليلة وأراحنا وريَّح المسلمين، فمن صلاة العشاء يتقلب على فراشه؛ لكي يأتي بهذا البيت، وأتى الصباح وأذن المؤذن، فقال:

سلمَى سلمْتِ منَ العاهاتِ ما سلمَتْ سلامُ سلمى وَمَا قد أورقَ السلمُ

وإلا فهو يبدع، ومن ذلك:

مرَّتْ سنينٌ بالسعودِ وبالهنَا فكأنَّها مِنْ قصرِها أيَّامُ

أيام الشباب والغنى والثروة.

ثمَّ انثنتْ أيامُ هجرٍ بعدهَا فكأنَّها مِنْ طولِها أعْوامُ

ثمَّ انقضَتْ تلكَ السنينُ وأهلُها فكأنَّهم وكأنَّها أحْلامُ

هذه الحياة، لخصها في ثلاثة أبيات، وهو صاحب البيت:

وَإذَا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طويَتْ أتاحَ لهَا لسانَ حسودِ

يقول: إذا أراد الله أن ينشر فضائلك في الناس سلط عليك حساداً يجلدونك جلداً بالقصائد وغيرها، فتظهر عظمتك ومكانتك، يسبونك فينشرون فضائلك.

ويدلل على هذه الأبيات فيقول:

لَولا اشتعالُ النارِ فيما جاورَتْ ... ما كانَ يُعرفُ طِيبُ عرْفِ العودِ

فنوح العود والبخور إذا لم تضعه على النار، لما كان شاع وذاع في الناس. ويقول:

وطولُ مقامِ المرءِ في الحيِّ مُخلقٌ ... لديباجتَيهِ فاغتربْ تتجدَّدِ

يقول: لا تبقَ باستمرار في قريتك دون أن تسافر، سيملك الناس ويكرهك أهلك، لا تستفيد ثروةً ولا علماً ولا معرفةً ولا خبرةً، ولذلك من يسافر يجد العلوم والخبرات والتجارب والثروة، وهو يدلل على هذا فيقول:

أفمَا رأيتَ الشَّمسَ زِيدَتْ محبةً ... إلى الناسِ أن ليستْ عليهِمْ بسرمدِ؟

لو كانت الشمس دائمة ليل نهار لملّها الناس.. لكن إذا أظلم الليل وأمضينا ما يقارب اثنتى عشرة ساعة طلعت علينا الشمس، فالكل يهفو إلى طلعتها؛ لأنها تجددت علينا، فأنت جدِّد من حياتك بالترحال والتنقل تطلب المعرفة والفائدة. فهذه من فوائد الأسفار.

وقصدي في هذا الباب أن المتنبي قد أبدع:

فلو لم يكن له إلا قوله:

فُراقٌ ومن فارقتُ غيرُ مذمَّمٍ ... وأَمٌّ ومَنْ يمَّمتُ خيرُ ميمَّمِ

لكان أحسن وأجاد وكفى.